9me Année No. 398

Lundi - 17 - 2 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٩٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ محرم سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٧ فبراير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

محمد محمود باشا



رجلان يُرْبكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما : رجل لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه ، ورجل لا يستطيع أن يختصر مايعرفه عنه . ووصْف (الأول) بالرجولة تساهل فى التعبير ، وإطلاق لفظ الرجل على (الآخر) قصور فى اللغة ؛ فإن من المسلَّمات فى تاريخ الإنسان أن من أفراده من يعلون حتى يكونوا خيراً من الملائكة ، ومنهم من يسفلون حتى يكونوا شراً من البهائم . أولئك هم أصحاب الرسالات لحياتهم للناس ، وهؤلاء هم أصحاب الشهوات لحياتهم لأنفسهم . ولا مراء فى أن الرجل الذى فقدته مصر فى هذه الأيام السود كان من البابة الأولى فى الرجولة : تجلت فى خلائقه مزايا الإنسان الرفيع فاتفق على نبله الصديق الحميم والعدو الكاشح ؛ وتمثلت فى أفعاله خلال الشريف الحر فاعترف بفضله الوطنى النزيه

والأجنبي المنصف ؛ وعاش محمد محمود عمراً ثم مات ، كما اشتعل القبس حيناً ثم انطفأ ، فقال قوم هو النور والإشراق ، وقال آخرون بل هو النار والإحراق ؛ وما أرسل الله من قبلُ حكيماً ولا زعيماً إلا آمن به بعض وكفر به بعض . وليس الإيمانُ بالدعوة دليلاً على الصدق ، ولا الكفران بها دليلاً على الكذب

***

لا يعني « الرسالة » من تاريخ صاحب الهوى الرفيع والنفس الكبيرة محمد محمود إلا دينه وخلقه وأدبه ؛ وهو في هذه الثلاثة بإجماع الكلمة كان مضرب المثل وموضع القدوة . فدينه دين المعتقد عن علم ، وخلقه خلق التقي عن عقيدة ، وأدبه أدب السري عن أصالة . وما اجتمعت هذه الصفات في زعيم حكيم إلا كانت ضماناً لحسن نيته وأماناً من سوء عمله

أما السياسة فلا تزال في الشرق العربي كله أثراً للعوامل الأجنبية ، فلا تتأثر برأي حزب ولا تتغير بإرادة حكومة . فمن الخطل أن ندخلها في أسباب الحكم على زعيم أو حاكم ما دام يتأثر بها ولا يؤثر فيها . وإذا اعتبرنا السياسة على هذا الوجه السلبي شهوة من شهوات النفس الطموح تصل من طريقها إلى المال أو الجاه أو الحكم ، فقد أبى لزعيم الأحرار الدستوريين نبل فطرته وكرم أسرته أن يجعل أي عَرَض من هذه الأعراض الدنيا غاية لهذا الطريق

اجتمعت لمحمد محمود باشا أرستقراطية النسب والمال والعلم والمنصب . فلو أنه كان يندلق على الناس بالبطر والزهو في الشوارع والمجامع لما كان ذلك بِدْعاً من الأمر ، ولكنه - برّد الله بالرحمة ثراه - ظل طول حياته يطالع الجمهور ويعالج الأمور ومن دونه حجاب من التصون الكريم لا يسمح له أن يتخذ الشعب إطاراً لصورته ، ولا مظهراً لعظمته

لم يقل أحد من الناس في وقت من الأوقات :

هذا محمد محمود يعرض سلطان منصبه على عيون الفقراء ، أو يفرض إعلان موكبه على حناجر الدهماء ، أو يرفد ثروته الضخمة بعضوية ظنينة في شركة من الشركات أو في بنك من البنوك !

ولم يقل أحد من الناس في مناسبة من المناسبات :

هذه زوج محمد محمود تتمرد على تقاليد الشرق وآداب الإسلام ، فتشهد مع الرجال حفلات النهار وسهرات الليل !

ولم يقل أحد من الناس في حالة من الحالات :

هذا ابن محمد محمود ينبو على القانون في الدواوين ، أو يعربد على الناس في عماد الدين ، أو يتنبل بالملباس والمركب في طريقه إلى نادي القمار أو إلى سباق الخيل !

إن بيت آل محمود وبيت آل عبد الرازق هما المثلان الصحيحان في مصر للأسرة المسلمة الحديثة . ذلك لما تهيأ لهما من وسائل السؤدد وشمائل الفتوة ؛ وجماع هذه الوسائل وتلك الشمائل قيامهما على أركان من المجد والمال والعلم والشخصية القوية قلما تجتمع كلها لبيت واحد . والسر كله في الشخصية الأصيلة التي خلقت من التليد والطريف والشرق والغربي مدنية مستقلة كانت أبلغ حجج الإسلام والشرق على من يقولون بلسان الجهالة والوضاعة إن الإسلام ينافي التمدن ، وإن الشرق يجافي الحضارة

ومن هنا كانت حياة الفقيد العظيم بخصائصها المميزة من العزة والعفة والإباء والصدق ، رسالة خلقية تقوم على الدعوة والقدوة في فترة من المصلحين الصالحين تفككت فيها الأواصر وتحللت العقد واتماعت النفوس ، وأصبح كل عمل يجوز ، وكل شيء يمكن ، وكل وضع يستقر !

***

رحم الله محمد محمود ! لقد كان فوق الشهوات والحزازات والحوادث فكان عفَّ اليد واللسان والضمير . وكان الناس لندرة هذه الخلال فيهم يحسبونه قد نزع في ذلك إلى أبناء « أكسفُرد » ؛ وما كان الشبه بينه وبينهم إلا في صفات القوة كصراحة الخلُق وصرامة النظام والاعتداد بالنفس والاستقلال في الرأي وما يستتبع أولئك من المحافظة على السُّنن الموروث والاكتراث للعرف المتَّبع . وأصول هذه الأخلاق مما ينبت طبيعةً في أقاليم الصعيد ؛ ولكنها تزكو زكاء الكلمة الطيبة إذا غذت أرومتها خصائص الجنس الممتاز وفضائل الدين الصحيح

فإذا برّح بالأمة الحزن عليه فذلك لأنه كان المثل الشاهد على أنها تلد الرجال الكمَلة إذا نشّأتهم على سننها القويمة ، ولأنه كان القدوة الحسنة لمن كان يشك في نجاح الأخلاق الكريمة

رحم الله محمد محمود ، وعزى أسرته على رزئه أجمل العزاء ، وعوض أمته من فقده خير العوض !

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

اتجاه جديد في وزارة المعارف — الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفي سيزلزل الهاجين عليه وسيقهر بعض الناس على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية والفنوية ... والحق أقوى وأغلب

اتجاه جديد في وزارة المعارف

لا يمرّ أسبوع بدون أن يطّلع الجمهور على أخبار جديدة عن وزارة المعارف، فهي في هذه الأيام مثار حركة ومجال نشاط، والحركة في أقبح صورها أجمل من السكون، لأن السكون في أجمل صوره من نُذُر الفناء

ومن مظاهر الحيوية في وزارة المعارف لهذا العهد خطب الدكتور هيكل باشا، وهي خُطب تشهد بأن هـذا الرجل يريد أن يجعل لنفسه تاريخاً في تطوّر التعليم، وهو بذلك خليق، فلهذا الرجل لفتات ذوقية واجتماعية تضعه في الصف الأول بين أقطاب الفكر في هذا الجيل

والظاهر أن وزارة المعارف أصبحت من الوزارات المحدودة، فهي منذ أعوام طوال صاحبة الحظ الأوفر من أحرار الرجال. ألم يتولّ أمورها أعلامٌ كان منهم: زكي أبو السعود، وأحمد ماهر، ولطفي السيد، وبهي الدين بركات، وعلى ماهر، ومحمد على علوبة، وحلمي عيسى، وعلى زكي العرابي، وأحمد نجيب الهلالي، ومحمود فهمي النقراشي؟

وزارة المعارف هي تاج الوزارات، وإليها يرجع الفضل في تكوين العقول والقلوب والأذواق، وعن وزارة المعارف يصدُر النشاط الأدبي والفني والاجتماعي، وهي صوت مصر في الشرق والغرب يوم يوضع للفضل ميزان

تلك وزارة المعارف، فما حالها في هذه الأيام؟

كان يُظَنّ أن المسيطرين على وزارة المعارف قد يفوتهم النظر فيما يوجّه إليهم من الملاحظات عن طريق الجرائد والمجلات، ثم ظهر أن في الوزارة رجالاً يقرأون ما يكتب ويسمعون ما يقال، وإن كان فريق منهم يعيش في أبراج من العاج!

لقد آمنت وزارة المعارف بأن من الواجب أن يظفر التلميذ المتوسط بالنجاح في امتحانات النقل والامتحانات النهائية، فأوصت بأن «توضع الأسئلة بحيث تكون الإجابة في متناول الأوساط من التلاميذ»

وهذا فتح جديد، فقد كان مفهوماً أن الامتحان من ضروب التأديب، ليصح القول بأن «من المحنة جاء الامتحان»!

وماذا تغنم الأمة حين ينجح التلميذ المتوسط؟

يقول المتحذلقون إن نجاح الأوساط من التلاميذ قد يجني على سمعة العقلية المصرية، وهؤلاء المتحذلقون هم مصدر البلاء، وهم عند التحقيق بعيدون كل البعد من السياسة الحكيمة في رياضة العقول، والزمن الغافل هو الذي قضى بأن يكونوا من المربّين

إن النجاح — ولو عن طريق التسامح الرفيق — يقوّي الشخصية المعنوية، ويزيد في عزائم التلاميذ، ويُشعرهم بأن الجدّ له جزاء، ولو كان أقل مما يجب أن يتحلى به الطالب الرشيد

لم يعرف المربّون في مصر أن نتائج الامتحانات العمومية — تلك النتائج الضعيفة الهزيلة — كانت الشاهد على أنهم حُرموا نعمة التوفيق في إيقاظ الغوافل من عزائم التلاميذ؛ وكانت البرهان على أن الجاذبية بينهم وبين تلاميذهم قد انقطعت أقبح انقطاع؛ وإلا فكيف جاز أن يقضي التلميذ سنة كاملة بين أيدي أساتذته بدون أن يستفيد، أو بدون أن تعي آذانه نصف ما يسمع، أو بدون أن يتجه قلبه إلى معانٍ جديدة تسوقه سوقاً إلى منازل الفضل والتشريف؟

المربّون هم علة العلل في فساد هذا الجيل، فهم السبب في ذهاب البشاشة من الحياة المدرسية، وهم الذين حوّلوا الجوّ المدرسي إلى مجازر نفوس، ومصارع قلوب، بفضل ما وَقَر في أذهانهم من أن وزارة المعارف لا تريد إلا أن يكونوا جبابرةً مستكبرين

لا يصلح المدرس لمهنة التدريس إلا حين يشعر التلميذ بأنه أبرُّ به من أمه وأبيه. أما المدرس الجهم الوجه، الغليظ الكبد، القاسي القلب، فله مكان آخر هو حراسة الساجين. ومن العجيب في مصر ألا تنال المدارس من العناية بعض ما تنال السجون! فالسجون مصدر خير على من يعيشون فيها، لأنها تؤهلهم للحياة؛ أما المدارس فهي تؤهل بعض أبنائها للتشرد البغيض، لأنهـا ترى ثلاثة أرباعهم في الشوارع بلا رحمة ولا إشفاق، بحجة أنهم لا يجيبون وفقاً لنماذج الإجابة، وهي

صور لا يضعها من شابت نواصيهم فى التعليم إلا بعد إجهاد الفكر فى غفوات الليل ! !

ليت المدرسين يعلمون ! ليت المدرسين يعلمون ! ولو استطعت لـكررت هذه العبارة ألف مرة ! ولـكن أين من يسمع ؟ !

يدخل المدرسون إلى أماكن التصحيح فى الامتحانات العمومية وهم لا يدركون ما يُقبلون عليه من شؤون لا يجوز فيها المزاح ، فيصنعون ما يصنعون بمصاير جيل برىء لا ذنب له غير الاعتراف بأبوّة أولئك « الراجمين » ، وتكون النتيجة أن يفقد أكثر الشبان فضيلة « الاكتراث » لأنهم يشهدون أن المقصر قد يفوز ، وأن المجاهد قد يخيب . وأين الفوز فى امتحانات لا ينجح فيها بين كل مائة تلميذ أكثر من ثلاثة وعشرين ثم لا يُقبل منهم فى الجامعة غير آحاد !

والأمة المصرية التى تبحث عن المعادن المطمورة فى الصحراء الشرقية والغربية هى ذاتها الأمة المصرية التى تقتل عواطف شبانها بسيف الامتحانات العمومية ؛ ثم يأخذ بعض جلاّديها جزاءهم على ذلك القتل ، ولم يبق إلا أن تُحلّى صدورهم بالأوسمة والنياشين ! !

غيّروا ما بأنفسكم ، يا بنى آدم ، من المدرسين بهذه البلاد .

غيّروا ما بأنفسكم ، قبل أن يضع الله السم فيما تنالون من أجور الامتحانات !

المعروف للجميع أن البكالوريا فى مصر أصعب منالاً من البكالوريا فى فرنسا وانجلترا وألمانيا . فهل نحن أعظم من الفرنسيس والإنجليز والألمان ؟

وماذا غنمنا من قوة البكالوريا فى مصر وهى لا تكفى للانتساب إلى الجامعة المصرية إلا فى حدود أضيق من سم الخِيَاط ؟

نريد أن نعرف مصاير أبنائنا فى هذا البلد الذى قيل فيه إنه مَجمع الغرائب !

نريد أن نعرف إلى أى حد تنتهى الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف !

ولـكن من يبلغ هذا الصوت إلى الرجال المسئولين ؟

من يبلغهم هذا الصوت والشيوخ والنواب لا يهتمون بغير مسائل فردية يتقدم فيها طالب على طالب بدرجة أو درجتين ؟

ليس المهمّ أن يُستجوَب وزير المعارف عن هذه التوافه من الشؤون ، وإنما المهمّ أن يُستجوَب عن مصاير المتعلمين فى هذا الجيل

المهمّ حقاً وصدقاً أن ينسى الوزير أنه مسئول أمام الشيوخ والنواب، وأن يذكر أنه مسئول أمام الضمير المصرى، والضمير المصرى يصرخ صراخ الجزع والرعب من ضياع أبنائه بين الجامعة ووزارة المعارف

وقد ظهرت تباشير تشهد بأن الوزير قد سمع صراخ الضمير المصرى لهذا العهد ، فنى يقال إنه نودىَ فأجاب ؟ ومتى نسمع أن التعليم صار من وسائل الحياة الـكريمة فى هذه البلاد ؟ متى ؟ متى ؟ علينا أن ندعو ، وعلى الوزير أن يجيب !

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى

فى العدد ٣٩١ نشرت الرسالة كلة بإمضاء محمد فهيم عبية جاء فيها أن الأستاذ السباعى بيومى وصف الشيخ المرصفى « بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم » وأنه « حكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العَصوف بسحيق التراب »

وفى العدد ٣٩٢ نشرت الرسالة ردّاً بإمضاء عبد الرحمن أيوب مع كلة من الأستاذ السباعى بيومى تشهد بأنه أقرّ ما جاء بذلك الرد ، وهو يلخّص فى أن الأستاذ السباعى حكم بأن الشيخ المرصفى « كان يملـكه الغرور » وأن « الأستاذ السباعى فى حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدُر فى ذلك عن دراسة بعيدة الأمد » وأن كتابه ظهر فى سنة ١٩٢٣ على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفى إلا فى سنة ١٩٣٠ ، وأن فهارس كتاب الشيخ المرصفى وعناوينه سُرقت من كتاب الأستاذ السباعى ، وأن المرصفى لم يكن أستاذ السباعى !

وفى العدد نفسه ٣٩٢ نشرت لى الرسالة كلة عتاب موجهة إلى الأستاذ السباعى بيومى ، وقد جاء فى تلك الـكلمة أن الأستاذ تحدث عن أخلاق الشيخ المرصفى بما لا يليق ، « فإن كان ذلك الـكلام لم يقع منك فانفِه فى العدد المقبل ، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار ، إبقاء على ما بينى وبينك من وداد ، فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ المرصفى بسوء ، ولو كان من أعزّ الأصدقاء »

ثم لقينى صديق عزيز فقال : لم يرضنى تحدّيك للأستاذ السباعى بيومى ، فقد كان يتفق فى أحيان كثيرة أن يحمل

مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب

وعندئذ رجعت إلى نفسى فخفضتُ للأستاذ هذا الفضل ، وآثرت الصمت ، ولكن الأديب على محمد حسن كتب إلىَّ خلاصة ما تجنَّى به السباعى على المرصفى وأكد أنه قال :

« أنا أحذركم من قراءة كتاب المرصفى فإن فيه من الخطأ أكثر مما يتوهم أن يكون فى كتاب الكامل من الخطأ ، وأنا أدعوكم مرة أخرى إلى إساءة الظن بهذا الرجل ، فقد كان ممتلئاً غروراً » وأكد هذا الأديب أن الأستاذ السباعى لن ينكر ذلك الكلام « وقد كان الحضور كثيرين من أساتذة وطلاب »

ومع هذا فقد كان فى النية أن أسكت عن الأستاذ السباعى لأنه صديق ، ولأن هجومه لن يقلقل مركز الشيخ المرصفى وهو أرزن من الجبال، ولأن الأقدار قضت بأن يكون الأستاذ السباعى من زملاء الأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ أحمد زكى صفوت ، وهذه الزمالة تمنحه عندى طوائف من الحقوق

ثم ماذا ؟ ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشر عن تاريخ الشيخ المرصفى، وأن أقدّم فى الوقت نفسه خدمة أدبية للأستاذ السباعى ، ولن يُخدَم الأستاذ السباعى وهو صديق إلا بجذبه إلى الجدل على صفحات الرسالة فى أسلوب رفيق لا يغض من مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم

وإنما نصصت على الأسلوب الرفيق لأن أكثر الأدباء يفرّون من وجهى بحجة أنى لا ألقاهم إلا بقلم تطير عن أسلاته شظايا الشراسة والعنف

وقد استجاب الأستاذ السباعى لهذه الدعوة ، وأعلن على صفحات الرسالة أن فى الخصومات الأدبية مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق

وما دام الأمر كذلك فأنا أقدم الحقائق الآتية :

أولاً — قضى الشيخ سيد المرصفى شبابه فى خدمة كتاب الكامل للمبرد ، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه : « رغبة الآمل فى شرح الكامل » وقضى الأستاذ السباعى بيومى شبابه فى خدمة كتاب الكامل للمبرد ، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه : « تهذيب الكامل »

فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن يكون الفرق بين « رغبة الآمل » و « تهذيب الكامل » كالفرق بين المرصفى والسباعى ، وهو بونٌ شاسعٌ جداً بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيارين من الإنجليز والألمان ، ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحليق فى جواء الادعاء

ثانياً — أعلن الأستاذ السباعى أن كتاب الشيخ المرصفى ظهر فى سنة ١٩٣٠ والصواب أنه ظهر سنة ١٩٢٧ وليس لهذا التاريخ أهمية ، وإنما الأهمية للتاريخ الذى أخذ فيه الشيخ المرصفى يشرح الكامل ، وهو تاريخ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس « الكامل » لطلاب الأدب من الأزهريين، ففى ذلك العهد ثار الشيخ الشنقيطى وطلب إلغاء ذلك الدرس ، وكان مفهوماً عنده أن المبرّد أكبر من أن يتسامى إلى نقده رجلٌ من المحدَثين ،

ولكن الشيخ محمد عبده تلطف فأرسل الشيخ ابراهيم عامر إلى الشيخ الشنقيطى ومعه ملزمة من شرح الشيخ المرصفى ، فدهش الشيخ الشنقيطى وسارع إلى الاعتذار ، ثم صارحَ الشيخ محمد عبده بأن المرصفى لا يقلّ علماً بأسرار اللغة عن المبرّد

ثالثاً — كان كتاب « رغبة الآمل » كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس فى سنة ١٩١٥ وقد رأيته بعينىَّ فى ذلك العهد ورآه معى الشيخ الزنكلونى طيَّب الله ثراه !

ولن أنسى ما حييتُ تلك العبارة الشعرية التى صرخ بها الشيخ المرصفى وهو يقدّم إلينا شرحه على كتاب المبرد ، لن أنساها أبداً ، فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرّد :

« الله على أيامك ، يا بَطَل !! »

والكتاب الذى كان كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس

قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذى سُرِقت بعض فهارسه من كتاب ظهر فى أواخر سنة ١٩٢٣

رابعاً — لم يكن الشيخ المرصفى يطّلع على شىء من مؤلفات المعاصرين ، فكيف اختص الأستاذ السباعى بتلك العناية ؟ تلك والله إحدى الأعاجيب !

خامساً — كان الشيخ المرصفى أول رجل تسامى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء ، وكان أول رجل أقرّ « كرسى الأدب » فى الأزهر الشريف ، وكان أول رجل جعل للأديب مكاناً بين « جماعة كبار العلماء » فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال

فماذا صنع الأستاذ السباعى فى دار العلوم ، ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار، مع التسامح الشديد؟

سادساً — برّأ الأستاذ السباعى نفسه وطهّر تاريخه من التلمذة للشيخ سيد المرصفى ، فأين هو من تلاميذ الشيخ المرصفى وكان منهم محمد ابراهيم هلال ، ومحمود حسن زناتى ، وأحمد حسن الزيات ، وعلى عبد الرازق ، وطه حسين؟

سابعاً — ترك الشيخ المرصفى ذخيرة عظيمة ، منها : شرح الكامل ، وشرح الأمالى ، وشرح الحماسة ، وشرح العقد الفريد ، وشرح أراجيز رؤبة وأراجيز العجاج ؛ ومنها : التعقيب على لسان العرب ، والنص على أغلاط صاحب المفصّل والكشاف . فماذا صنع الأستاذ السباعى ، وكان عمره موقوفاً على نقل نصوص الكامل من مكان إلى مكان ؟ !

ثامناً — أثّر المرصفى فى عصره أبلغ التأثير ، فكان الرجل يتشرف بالانتساب إليه ، كما صنعتُ حين رثيته يوم وصل نعيه وأنا طالب فى جامعة باريس ، فكم طالباً يسرّهم أن يقولوا : إنهم تلاميذ السباعى بيومى ؟ !

تاسعاً — كان تلاميذ المرصفى يقيّدون جميع ما ينطق به ، ولو عن طريق المزاح ، وقد قيدتُ من كلامه ثلاثين كراساً ، فأين ما قيّد تلاميذ السباعى من كلامه البليغ ؟

عاشراً — دخلتْ مؤلفات الشيخ المرصفى على القلوب بدون استئذان ، ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعى دار العلوم إلا بعد أن صار أستاذاً بتلك الدار ، وبعد أن مات الشيخ علاّم !

أما بعد ، فهذه طلائع لغزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعى من وضع إلى وضع ، وذلك فضلى عليه ، وهو واجب الصديق نحو الصديق ؛ وقد تلطّف فأشار إلى أنه سيخاصمنى خصومة أدبية ، وهى خصومة أرحب بها كل الترحيب ، لأنى أشعر شعوراً صادقاً بأنى موكلٌ بإحياء العزائم والقلوب

وقد أسرف فى الكرم فأعلن أنى لن أجترئ على الكتابة بعد أن ينشر فى « الرسالة » كلمتين !

وأقول : إنى لن أصفح عنه أو يشتغل محرراً متطوعاً بمجلة « الرسالة » ثلاث سنين ، كما قهرت أخاً له من قبل على أن يشتغل محرراً متطوعاً بجريدة « البلاغ » ثلاث سنين !

هى محنةٌ صُبتْ من شاهق على الأستاذ السباعى ، فليتحملها صابراً ، وليوطن نفسه على أن الخصومة بينى وبينه لن تنتهى قبل بداية شهر مايو ، وهو الموعد الذى حدده الشيخ الأسيوطى لنهاية الحرب بين الإنجليز والألمان ! !

و كيف يخيفنى تهديد الأستاذ السباعى وليس فى ماضيه الأدبى غير نقل نصوص كتاب الكامل من مكان إلى مكان ، وتلك مهمة يقوم بها أحد النساخين بدراهم معدودات ؟ !

أمثلى يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحق وقد قضيت دهرى ممتحَناً بعداوات الرجال ؟

الأستاذ السباعى يهدد بمقالتين اثنتين ، وهو يعرف من نفسه أكثر مما أعرف ، فهل يتوهم أنى سأخلى له الميدان ليخاطر نفسه كيف شاء ؟ !

لقد تلطفت معه أكثر مما يجب ، ولم يحفظ جميلى ، فكيف ترانى أعطف عليه وقد تردّى بثوب العقوق ؟

ثم أما بعد ، فقد حكمت على الأستاذ السباعى بترك دروسه فى دار العلوم ليشغل نفسه بخاطرتى ، وليقول : إن « تهذيب الكامل » أعظم من « رغبة الآمل » ، كما كان نجم الأرض أعظم من نجم السماء ! ! !

وماذا يمنع من أن يكون السباعى أعظم من المرصفى ؟ ماذا يمنع وقد اختلت الموازين وفسدت الدنيا إلى أبعد حدود الفساد ، حتى جاز للأستاذ السباعى أن يهدد صديقه القديم ؟

زكى مبارك

الى الدكتور زكى مبارك

خصومة أدبيـــة

للأستاذ السباعى بيومى

أولى الكلمتين

وعدت حضرات القراء فى عدد الرسالة الأخير أنى سأنشر فى عدديها المقبلين كلمتين اثنتين ، أتوجه فيهما بالحديث إلى صديق الدكتور زكى مبارك . وهذى أولى الكلمتين ، وهى كما رسمت حين وعدت ، ترمى إلى تقرير الموضوع الأصيل الذى من أجله كتب الدكتور

ألقيت محاضرة بمدرج على مبارك باشا فى دار العلوم عن « أسلوب المبرد فى كامله » وعقب انتهائى منها طلب أحد مستمعيها من طلاب كلية اللغة العربية السماح له بكلمة، فأجبته إلى ما طلب، وكانت كلمته أربعة أسئلة ألقاها، رمى المبرد فى رابعها بالغرور والادعاء، وأنه كان لا يتحرى إذا أجاب. فرأيت الموقف يقضى علىّ أن أرد عليه، وفعلاً رددت، وكانت إجابتى عن السؤال الأخير تتلخص فى نفى تلك الصفات الذميمة عن المبرد نفياً قاطعاً ، استدللت عليه بأمور ، منها أن من شأن من لا يتحرز فى إجابته ألا يمسك إذا لم يتثبت ، وإنما يرمى بالقول جزافاً ، ويخترع الإجابات اختراعاً ، وعهدنا بالمبرد أنه غير ذلك ، فقد رأيناه فى كامله إذا عرض له مالا يعرفه اعترف بذلك ، خضوعاً لتلك الكلمة الجامعة التى لا ينزل على حكمها إلا الثقات الأعلام ، وهى « من قال لا أدرى فقد أجاب » ثم أخرجت من الكامل شاهداً على ذلك أسمعته الحاضرين ، ومنها أن من خالط قلبه الغرور وتملكه الادعاء لم يك فى مقدوره أن يخفى ذلك فى مصنفاته ، بل لا بد أن يفضحه أسلوبه

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وليس فى كامل المبرد على كثرة كسبه فيه ونسجه حول أصوله ، ما ينفى عنه صفة التواضع العلمى ، أو يلقى على أبحاثه ولو ظلاً صغيراً من الكبرياء والادعاء

ودعماً لهذا الاستدلال الأخير فى أن أسلوب الكاتب يشف عن خلائقه ، قلت للسائل — وقد ذكر أنه استقى ذلك من شرح الشيخ المرصفى على الكامل — إن مؤلفات المرصفى هى التى تنم عن خلق الغرور والادعاء فيه ، كما يعلم ذلك من اطلع على هذا الشرح ومقدمته ؛ وكذلك من اطلع على مثلهما فيما سماه بدوان الحماسة . وقلت : وإنه لتأصل هذا الخلق فيه كان شديد التحامل على المبرد والتشهير به فيما يظن أن المبرد أخطأ فيه ؛ ثم قلت : وكم كنا نتمنى للشيخ المرصفى أن يجرد علمه من غروره ، ويسبل على تآليفه ثوباً ضافياً من التواضع والاعتدال ، حتى يكون ذلك أبين لفضله وأدل على نبله

وأخيراً قلت : ولا يبعد أن تكون البيئة العلمية التى عاش فيها المبرد قد تقولت عليه ما تقولت حسداً وبغياً ، فإن علماء عهده ما كانوا يعهدون من علمائهم إمامة فى اللغة إلا فى ناحية واحدة منها ، كناحية قواعدها ، أو ناحية مفرداتها ، أو ناحية آدابها ، ولكن المبرد كان إماماً ذا آراء فى هذه النواحى الثلاث جميعاً ، فهم بما كانوا يتقولون عليه إنما يريدون انتقاصه شفاء لما دب فى صدورهم عليه من حقد وحسد

ولقد خفت أن يهجس فى نفوس السامعين تنزيه قلوب هؤلاء العلماء من رذيلة الحسد فأتبعت ما سبق بقولى لحضراتهم : ولا تستبعدن الحسد على العلماء، فإن من طبيعته أن يكون أقرب إلى الأدنين منه إلى الأباعد ، وأسرع إلى قلوب العلماء منه إلى قلوب الجهال ، وإذا ما شئتم مزيداً فى معرفة هذه الطبيعة — طبيعة الحسد — فاقرءوا رسالة الجاحظ فيه ، وهى أكثر من اثنتى عشرة صفحة

ذلك ما قررته فى إجابتى عن السؤال الأخير ، بعد الذى قررته فى الإجابة عن الثلاثة قبله . وما كان أشده عجباً وأبعده غرابة أن تطوى صحيفة الإجابات الثلاث وقد سلخت فيها نحو الساعة ، ثم تشوه هذه الإجابة الأخيرة تشويهاً يمسخها مسخاً ، وإذا أنا أمام الواصل إلى منها كالذى يستمع إلى الآية « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » دون ذكر هذه الجملة الحالية بعدها « وأنتم

سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فقد كان هـذا الواصل أننى وصفت الشيخ المرصفى « بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم » وأننى تعديت ذلك إلى « تجريح طوائف العلماء على اختلاف مهنهم وحكمت بأن طباع الحسد والحقد لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذى تجد من قلوب العلماء »

وارحمتا للأخبار من رواتها ! فما كان منى عن الشيخ المرصفى علم الله إلا أسفى على ما خالط مؤلفاته من غرور وادعاء وتطاول على المبرد فى أسلوب غير حميد ؛ وما زلت معتقداً هذا رضى الدكتور أم سخط ، وواثقاً أن كثيراً من أهل العصر يعلمونه على ، ويعرفون كيف يستدلون عليه استدلالى . وكم كنت كما قلت فى إجابتى أتمنى خلوّ مؤلفات المرصفى من غروره ، حتى لا يذهب هذا الغرور بفضله ، وما كان منى عن العلماء شهد الله إلا أنهم فى بيئة المبرد حسدوه تنوع ثقافته وتمدد إمامته ، وأن هذا الحسد لم يك من شأن علمهم أن يبعده عنهم ، لأن الحسد كما يقولون مُوَكّل بالأدنى، وهو كما ذكر الجاحظ فى رسالة الحسد : « قد صار فى العلماء أكثر منه فى الجهال ، ودب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين » . وأنا بهذا الرأى لا زلت ولن أزال أدين ، وافق الدكتور أم خالف .

هذا يا صديق الدكتور هو الأمر الأصيل على جليته ، قد بسطته موضوعاً فى نصابه مقرراً على وجهه ، لا كما تطايرت به الإشاعات بل الإشاعات المغرضة ، وأنت بما تدخله روايات السوء على الأخبار جد خبير . وقديماً قالوا : وما آفة الأخبار إلا رواتها . ولعلك يا صديق عتبت علىّ أنى لم أجبك أول ما سئلت ، وما كان لك أن تعتب ، فتلك عادة الناس فيك وموقفهم منك . على أنى أخالف تلك العادة وأجيبك عسى أن تستريح .

تعلمْ يا صديق أن إغفال إجابتك ما كان إلا استبعاداً عليك أن تفهم ما فهمت ، وإلا أملاً أن يردك هذا الاستبعاد إلى الحقيقة تستقيها بعيداً عنى ، من غير كاذب فيها أو مشوه لها ، وشهود المحاضرة كانوا بحمد الله كثيرين . ولا أكتمك سبباً آخر قوى هذا الإغفال فى نفسى ، ذاك هو أمرك لى أن أسارع إلى نفى ما سمعت إن كان لم يقع ، وإلى الاعتذار منه إن كان قد وقع ، وإسرافك فى هذا الإسراع تطلبه فى أول عدد يصدر من الرسالة ، وثالثة الأثافى أن تقول لى : « إلى أن يثبت أن الراوى افترى عليك ، أعلن غضبى على ما بدر منك » . سبحانك اللهم وتعاليت ! فما كان لأحد أن يقول : «ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » إلا أنت .

تلك الثلاث يا صديقى وغيرهن كن محرضاتى على ترك أول عدد من الرسالة يصدر خلواً من نفيي واعتذارى ، لأقف على ما فى كنانتك من سهام ، ولأتذوق ما قد يصبه غضبك فى الجام . وهأنت قد اغتررت فكتبت كلة ثانية تؤذننى فيها بخصومة تريدها أدبية ، والله أعلم بما تريد ، وترميني فيها بفرية السرقة منك ، جاهلاً كما ستعلم فى كلمتى الثانية أنك أنت الذى افتريت وسرقت

وبعد فإن وصاتى لك يا صديقى أن تتريث ، فإن فى العجلة وبالاً عليك ، وألا تعود تغتر بسكوتى عنك ، فما مثلى ومثلك فيه إلا كما قال الأول :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه … حفاظاً وينوى من تطاوله كسرى
أظن خطوب الدهر بيني وبينهم … ستحملهم منى على مركب وعر
وأنى وإياهم كمن نبه القطا … ولو لم تنبه باتت الطير لا تسرى
أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً … فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

السباعى بيومى

في الاجتماع اللغوي

تطور معاني المفردات

عوامله وآثاره

للدكتور علي عبد الواحد وافي
مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لهذا النوع من التطور الدلالي[١] عوامل كثيرة سنعرض لبعضها في هذا المقال، مرجئين تكملتها إلى مقال آخر إن شاء الله

١ — عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف. فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تغير في معاني المفردات. وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق. ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز. فقد يكثر استخدام الكلمة مثلاً في جيل ما في بعض ما تدل عليه، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلي بعض العلاقات، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد. وإليك مثلاً كلمة saoul الفرنسية؛ فقد كان معناها في الأصل «الشبعان» من الطعام، ثم كثر استخدامها في عصر ما في النشوان من الخمر، عن طريق المجاز والتهكم، وللتحرج من استخدام الكلمة الصريحة في هذا المعنى وهي ivre. فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار في هذا الجيل، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة فأصبحت صريحة فيه[٢]، وانقرض معناها القديم في لغة التخاطب

وإلى هذا العامل ترجع أهم الأسباب في تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل، وفيما يعترى المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق. بل إن طائفة من العلماء، على رأسها العلامة هرزوج Herzog قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة[٣]

٢ — وكثيراً ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة؛ فقد يخصص مدلولها العام، وتقتصر على بعض ما كانت تدل عليه في لغتها الأصلية، وقد يعمم مدلولها الخاص، وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين، وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه... كما أشرنا إلى ذلك في بعض مقالاتنا السابقة

٣ — وقد يكون العامل في تغير معنى الكلمة أن الشيء نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به... وما إلى ذلك. فكلمة «الريشة» مثلاً la plume كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتطور المادة المتخذة منها آلة الكتابة، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة في صورة خاصة. والقطار كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر والنقل، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية. و «البريد» كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل، فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر. و «بنى الرجل بامرأته» كانت تستخدم كناية عن دخوله بها؛ لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديداً؛ ولا نزال نستخدم هذه العبارة كناية عن نفس المعنى مع أن الزفاف لا علاقة له في نظمنا الحاضرة بالبناء. وقد جرت العادة في بعض العصور بفرنسا أن يقضي المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية؛ ومن ثم جاءت عبارة envoyer aux galères ووصف galerien ولكن تغير الآن مدلولها، مع بقائهما في الاستعمال، تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها

٤ — عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات. فكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى. ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الطبقات الناطقة باللغة الواحدة من فروق في الخواص الشعبية

---

(١) ذكرنا في المقال السابق أن التطور الدلالي ينتظم ثلاثة أنواع: تطور القواعد، وتطور الأساليب، وتطور معاني المفردات (٢) لا تقل الآن كلمة saoul من كلمة ivre في صراحتها في التعبير عن النشوان إن لم تزد عنها في ذلك

(٣) "V. Meillet : Comment les mots changent de sens" dans " L'Année Sociologique " T. 9. p. p. 6, 7. — V. aussi Herzog : Streitfrangen der romanischen Philologie.

١٢ ٥ ١٦

والجسمية والنفسية ، وفى شؤون السياسة والاجتماع والثقافة والتربيـة ومناحى التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعادات ... ، وفى الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته ، وإنشاء مصطلحات خاصة بصـدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم ، وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له ، أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جراً . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها فينشأ من جراء ذلك ما يعرف « باللهجات الاجتماعية » التى تكلمنا عنها فى مقال سابق

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

٦ - أومنُ بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

بين الغفلة واليقظة — صيحة فى أذن الانسان — لو ، ولعل ، وربما — لا ملام على الأقدار — لم تفت الغاية — نقطة البدء فى الحياة الفكرية — الجناية الأولى — حادث عظيم — آثار من الوثنية — الوضع الأصيل للدين — ديانة الحياة

حينما أعس وأندس إلى مجلس فى مقهى بلدى حقير أرقب الحياة الإنسانية فى بعض جوانبها ، وأتفرس فى وجوه القوم ونواصيهم ، وأتسمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم ، وأتتبع نظراتهم للحياة فأجدها لا ترتفع إلى شىء سام ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا للحياة ، ولا تفكر فى مبدأ أو مصير ، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد ...

وحينما أقذف بجسمى فى زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج الحركات والأصوات والأبواق وصفقات الأيدى الخاتلة على الأيدى المختولة فى العقود والمبايعات ، وسائر الارتفاقات والمشاحنات

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية . فأجدها سلسلة من التنقلات والأكلات واللذات والأعمال الآلية التى لا استحضار فيها لمعان كريمة ، ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية بها ... وإنما هى دورات رحوية وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال : إلى أين المسير ؟

حين هذا كله أجد فى نفسى كأن الإنسانية غريقة فى غفلتها وذهولها ، وكأنها خلقت لهذه التنقلات ولن تكون لغيرها ، ولن تكون لحياة أخرى وراء هذه الحياة ... وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الحادة الواعية العادلة الموزونة انفصالاً يكاد يجعلها عالماً مستقلاً ...

ذلك وحى رؤيتى لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور فى الأكوان ، وإهمالهم التفكير فى مبدأ الحياة ومنتهاها وفى خفايا الطبيعة وأسرارها ...

وحين أجلس مجلساً تثار فيه الأفكار عن الـكون والفساد والحقائق والأباطيل وتصول فيه العقول وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاقفة ...

أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد ...

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات والبرقيات مما أخرجه عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار ...

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة فى محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات فى إطراق وخشية واستحضار لعظمة الـكون وجلال بارئه ...

أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامتة والناطقة فى الطبيعة ، واسترق السمع للنغم الذائب فى الـكون ، والموسيقى الأبدية فى حركات نجوم السماء ونجوم الأرض ...

حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته ...

هنا الإنسانية التى تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته وملكوت واسع يصح

أن نستند إليه فى تخيل مستقبله وفى تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات ...

ثم أصيح : أيها الإنسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها ... تيقظ إنك حى تسمى وترى وتفكر وتتجه فى أى اتجاه تريد وسط الظلام والجماد والنور والصمت والبكم والصمم والعمى

أنت الذى تفقه وتدرك تلك الحياة التى لا تجد غير عينك وأذنك وسائر حواسك

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذى يحيط بك وأنك خليفة على مقدرات الأرض وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه والتغيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف فى سمع الزمان والمكان : أنا أنمو وأرق وأتكلم وأفكر وليس أمامى حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة ...

واجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات لترى الفوارق بينك وبينها ... ولن يغفر خالق الإنسان لامرئ جاء إلى الحياة ولم يجلس مجلساً بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ويحدد موضعه منها ، ثم يرفع عينه إلى السماء ويخفضها إلى القبر حتى يرى الطريق بينهما . . .

تيقظ إلى الذى مسنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين إلى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة فى السماء ومشاهد مرنة متغيرة فى الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومطَّ أجسامنا من مضغة لحم ملقاة فى ظلمات الأرحام إلى أجنة مكتملة التخليق إلى أطفال دراجين إلى غلمان يافعين إلى مراهقين متفتحين إلى شبان مشبوبين إلى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياماً ...

إلى الذى أدار الشمس أمام عيوننا دوراناً يبلى فى أجسامنا نسيجاً وينسج آخر ، ويزيد فى أفكارنا صوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام تحت أقدامنا سفراً فى الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكرى وراء ذكرى ...

إلى الذى فتح فى نفوسنا نهماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق الوجود ، ثم سجننا فى سجون القبور إلى يوم النشور ...

إليه منا نحن الذين نبحث عنه منذ أن دخلنا عالم الفكر وننتظره وراء الأستار ونقرع باب الزمان والمكان فى غرة كل يوم وقفنا كل مساء نسائل عنه ، ومعنا عيون تقود وأقدام تسير وقلوب تتلفت وراء كل ورقة فى كل شجرة وكل ذرة فى كل مدركة . وتنظر فى الوجوه والعيون والألسنة ، وما يزحف وما يمشى وما يطير وما تحمله الريح وما يحمله الماء والأثير وما تحمله قوة القوى : الفكر !

أواه ! أية غفلة هذه التى تغشى الناس وتتركهم عمياً ذاهلين عن مجىء الحياة بهم من غير اختيار إلى دار العجائب وعن سيرها بهم إلى دار المجهول ! وعن سير الشمس والقمر وتوارد الأيام وسقوط الأمطار وأسفار الرياح إلى مختلف النواحى !

ثم أية غفلة هذه التى تغشى عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء بهم وسيذهب ... ذلك الذى استتر وأصر على تكبره واختفائه؟

***

ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها فى غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من البسائط إلى المركبات إلى المعقدات وهو فى شغل عن الأسباب والمسببات إذاً لخرج منها مجنوناً بمجرد دخوله إليها من شدة الفجأة ودهشة العجب !

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثرهم بصغائر الحياة والنزاع عليها ، وجعلهم كالقطيع الغافل المرتاح السادر فى غفلته وعماه عن المعلوم والمجهول من أمور الحياة ... وأخرجهم فى خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا فى الأرض كما تعمل الثيران فى الطواحين ... تدور وهى لا تعلم أنها تدور ولماذا تدور ... وضربهم بفتنة الدنيا ، فزاغت منهم الأبصار عن الحقائق إلا فى فترات الدين والصلوات ... وحتى هذه أدركوها وهم فى خمار المادة وسمار الشهوات ، إلا قليلاً منهم وهم العارفون المدركون لأرصاد الطبيعة وشىء من تدبير الله فيها ... لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر فى أعاجيب صنعه التى كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة ...

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصاعوا تحت حكم الأقدار ، ولو فى مفارقة الأضرار والأوصاب ، إذ قد عرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشتركوا فى حبك الخديعة التى أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التى عليها عمار الأرض بالأسلوب المادى المعروف

وربما كانت غرائز القطيع المنيفة هى التى تنمى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عنف غرائز الطفل مستقبله ويوسع من آفاق حياته ...

إذاً ، فلا ملام على الأقدار التي تدبر كل شيء وتضعه بميزان ولا يجوز مطلقاً أن نتوهم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات ومآثم قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد فاتت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم بعض من كتب إليَّ منذ حين — فإن الإنسانية لا تزال في دور تفتح المدارك واستقبال الشباب ، والشباب فيه لوثات كثيرة ، ولا بد أن تتدرج إلى أدوار الرشد الخالص في كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية من خلقها كما أرادها ربها …

وكل مآثم الحياة الإنسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلاً ، إلا الكفر بخالق الحياة أو الإشراك به !

وكذب من يريد خديعة نفسه وخديعة الطبيعة وخديعة رب الطبيعة !

ذلك الذي يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير نقطة البدء التي براها الفكر أول حياته ومفتاح عاله …

كذب وضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً ، وقلب الحياة على أم رأسها وأم رأسه !

إن نقطة البدء في الحياة الفكرية ، هي الفكر في صاحب الدنيا : هذا البيت الكبير الهائل الذي جاء بنا إليه وأسكننا فيه من غير اختيار منا … الفكر فيه حتى نعرفه وندرك طرق تسييره للحياة والطبيعة ، فنسير على خطواته وأسلوبه …

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر … وقد رأينا ظل يده يقع على كل شيء ويضع كل شيء في موضعه

ومن أضل ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ويباعدهم عن نقطة البدء هذه ويضعهم في مكان سحيق ، فيستمر أول الطريق عندهم مجهولاً وآخره مجهولاً ، ووسطه مختلطاً مشوشاً كذلك !

الجناية الأولى هي إهمال الفكرة الأولى : وهي السؤال عمن جاء بنا إلى هنا ، ويمضي بنا كماري سبيل . ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التي تجعل الحياة أغلاطاً مسلسلة

* * *

إن انفصال جنين إنساني من رحم أمه حادث عظيم ينبغي للانسانية أن تلتفت إليه وتوليه أجل عناية ؛ فلعل في الوليد حلقة جديدة فائقة تحمل سراً جديداً من أسرار تكوين هذا النوع

ولكن الإنسانية أو الدولة تجني على نفسها إذ تهمل وصل كل عقل ناشئ بمفتاح الحياة ، ومفيض فيضها ومرسل رحمتها

وكأن الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن …

وما الوثنية ؟ هي انصراف العقل الإنساني عن الفكر في مصدر الحياة وما يليق له من الكمالات وعن شكره الدائم ما دامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة وتتواتر على الجسم … ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شيء من الأشياء ينسى الإنسان معه الإحساس بالحياة ورب الحياة ويستغرق في ذلك النسيان حتى يتعبد ويلوذ بما ركن إليه …

وها نحن أولاء نرى في هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات والآلات والأعمال والصناعات يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى صاحب الحياة …

قد يظن ظان أني مغال في الصوفية حين أدعو إلى أن يكون عقل الإنسان دائماً مرآة لشعاع ساقط من سماء الله … ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقي للدين على ما أفهمه وعلى ما فسرته به في مقال سابق من أنه الإحساس الدائم بالحياة والفكر في مبدعها لتكون لذاتها وآلامها وأطرابها وأوصابها صوراً وألواناً من العبادة …

والإسلام الذي هو دين الطبيعة ودين الحياة قد رسم لنا هذا حين سن رسوله أن يذكر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر الأعمال والآلام ، حتى عند ما يريد الإنسان أن يدخل المكان الذي يخرج فيه ما في جوفه من الأذى … !

ولن يكون الدين غير هذا … فليحمله في نفسه من شاء ، وليتركه من شاء …

* * *

ألا إنها « ديانة الحياة » التي تستحق وحدها أن يحيا الإنسان بها ويسعى جاهداً في سبيلها لتحقيق غاياتها …

وغاياتها : العقيدة الثابتة التي لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هي في الطبيعة … ورصد قوانين الطبيعة التي تسير الحياة بنظام دقيق في الجليل والحقير …

أيام الرواق ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

الرواق العباسى هو أشهر أروقة الجامع الأزهر ، وكان الأستاذ الامام محمد عبده عليه رضوان الله ، يلقى فيه دروسه التاريخية التى هى من مفاخر الأزهر ، وقد شهد الرواق فى الأيام الماضية القريبة مناقشات الرسائل الفقهية التى تقدم بها طلاب الأستاذية من كلية الشريعة ، وكانت هيئة الامتحان برياسة فضيلة الأستاذ الامام المراغى الذى انتهز هذه الفرصة ليلقى على الأزهريين أنفع الدروس ، ويضرب لهم أحسن الأمثال ، فما أشبه الليلة بالبارحة !

شفاك الله يا صاحب « الرسالة » ، وألبسك ثياب الصحة ضافية ، وأدالك من هذا المرض عافية سابغة كما يتمنى لك أصدقاؤك ومحبوك !

فى مثل هذه الأيام من العام الماضى ، كنت تكتب ، وكنا نكتب معك عن « فقهاء بيزنطة » الذين شغلوا الناس عما يجدى من العلم النافع ، والفقه المفيد ، بالجدال فى المحراب والشيطان وفائدة الأربعاء ، كما شغلوهم من قبل فى زر العمامة : « أيبتر أم يُضفى ، وفى شعر الذقن أيُحفى أم يُعفى ، وفى قبور الموتى : أتسوى بالأرض أم تقام ! »

وكنت تأسف ، وكنا نأسف معك ، على الواقع الذى يكسف البصر ، ويرمض الفؤاد ، ويثير الظنون ، من أن أحداً من هؤلاء السادة لم يضم إلى المكتبة الإسلامية — على كثرة ما أرغموها عليه من رسائلهم — سفراً واحداً يشرح للناس عبقرية هذا الدين ، وفلسفة تشريعه ، ووجوه إصلاحه ، وأسباب خلوده ، على ضوء العلم الكاشف ، ونظام التأليف الحديث !

فليتك الآن كنت معافىً طليقاً ، لم يقعدك هذا العاقد الكريه ، لتشهد معنا « أيام الرواق » !

إذن لرأيت فقهاء من غير الطراز الذى أثار بالنقد قلمك ، وأسال باللوم والتثريب بيانك ، ولرأيت الأزهر يكتب صفحة خالدة سوف تسجل فى تاريخه العلمى بيضاء ناصعة ، وسوف يتحدث عنها الأبناء والأحفاد كما نتحدث نحن عن صفحات الفخار فى ماضينا المجيد !

لم يكن الإمام المراغى فى هذه الأيام رئيس هيئة الامتحان فحسب ، ولو أراد ذلك واكتفى به لمرت هذه الأيام كما تمر غيرها من أيام الأزهر ، لا تلفت نظراً ولا تثير عبراً ، ولكنه أراد أن ينتهزها فرصة يضرب فيها للأزهريين جميعاً أروع الأمثال فى شتى نواحى العلم والفقه والتأليف والإفصاح !

فرأيناه وهو يناقش رسالة « النسخ » يأخذ على صاحبها أنه نقد أبا مسلم الأصفهانى نقداً مراً ، وتعصب عليه تعصباً ظاهراً ، لا لأنه هدم فكرته ، ووصل إلى أنها باطلة بالدليل العلمى الواضح ، ولكن لأنه يخالف جمهور العلماء وأكثرية المفسرين القائلين بوجود النسخ فى القرآن

وجه الأستاذ الأكبر هنا درساً نحب أن يلتفت إليه الأزهريون وأن ينتفعوا به ، فإنه قال للطالب : لقد كنت قاسياً على أبى مسلم فى غير ذنب جناه ، ولا شطط صار إليه ، فإن هؤلاء الذين قالوا بالنسخ فى القرآن مثلوا له بآيات بلغت عدتها عشرين آية ، فجاء الفخر الرازى وناقشهم فى تسع منها أو ثمان فظهر له أنها لا ينبغى أن تعد من باب النسخ ، فإذا جاء أبو مسلم ونقض بقية العشرين مبيناً بالدليل والبرهان ما صار إليه ، أيكون مستحقاً لهذا اللوم العنيف ، وكيف تحرمون على أبى مسلم ما تبيحون للفخر الرازى ؟

ورأينا الأستاذ الأكبر فى مناقشته لرسالة الزكاة ، ثم فى مناقشته لرسالة الحجر ، مثال العالم الذى درس نظم المعاملات دراسة موضوعية وافية ، وأدركها إدراكاً صحيحاً ، فأصبح بصيراً بكل ما حوله ، لا يُخادَع ، ولا يُغالَط فيه .

تجلى هذا المعنى مرة فى رسالة الزكاة ، فقد أراد الطالب

واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التى فى الطبيعة ... وعدم الغفلة والذهول متى لا نرى نهار اليوم كنهار أمس ... فلا يكون الزمان عندنا يوماً مكرراً مملولاً ، ولا يكون إحساسنا بالحياة واحداً فى مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة ، فإن ذلك إحساس جسدى فقط بالحياة ... ووراءه إحساس فكرى روحى عند من لهم إخلاص الفكر فى الكون ...

أولئك الذين يرون كل يوم جديداً ... ثم يسبقون الحياة والزمن ... ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة ... فإن العالم لا ينتهى أمده عند رؤية النفس والأرض والنجوم

وإن الذى صنع هذا العجب الذى نراه ، لا بد قد صنع غيره لا نراه

عبد المنعم خفوف

أن يعتبر (البنكنوت) من جنس الحوالات بالديون ، فسأله الأستاذ الأكبر : هل تحققت في هذه الأوراق شروط الحوالة بالدين من رضا المحال والمحال عليه ، حتى تكون حوالة صحيحة ؟ ثم أفاض في شرح اقتصادي تاريخي لنظام التعامل بالورق قديماً وحديثاً جلّى به المسألة للسامعين ، وضرب بهذه الدراسة الوافية أحسن الأمثال لمن يريد أن يصل إلى استنباط فقه جيد مستقيم !

ويجلى هذا المعنى مرة أخرى في رسالة الحجر ، فقد قرر الطالب أن قانون المجالس الحسبية قد أخذ بمبدأ معين ، فأنكر عليه الأستاذ الأكبر ذلك ، وسأله عن مرجعه الذي اعتمد عليه في تقريره ، فظهر أنه اعتمد على سؤال شفوي وجهه إلى أحد العارفين بنظام المجالس الحسبية واطمأن إلى جوابه ! وهنا ألقى الأستاذ الأكبر درساً عاماً في الأمانة العلمية ، وما يجب على الباحث من التحري وطول الصبر والأناة حتى لا يقع في مثل هذا الخطأ الكبير !

وقد أثار الأستاذ الأكبر في مناقشته لرسالة الطلاق مسألتين تستوقفان النظر ، وتستحقان البحث والدرس

إحداهما : أن الطالب كان يقرر أن الشريعة الإسلامية إنما أعطت حق الطلاق للرجل دون المرأة ، لأن الرجل أسمى من المرأة تصرفاً وأرجح عقلاً ، وأقدر على أن يحسن استعمال هذا الحق فيسمو به عن مواطن العبث ومواقع الهوى والغرض

فقال له الأستاذ الأكبر وهو يحاوره : إننا أولاً لم نجرب المرأة لنعرف إن كانت تستطيع أن تحسن استعمال هذا الحق لو أعطى لها أو لا تستطيع ، ولكننا إذا نظرنا إلى الرجل وجدناه قد أساء استعمال هذا الحق إساءة أصبحت مضرب الأمثال ، فهو يقسم بالطلاق حين يبيع ويشترى ، ويقسم به حين يمزح مع أصحابه ، ويقسم به حين يلعب النرد ، ويقسم به في كل تافه من الأمر ، فإذا كانت العلة تدور حول إحسان استعمال هذا الحق أو إساءته ، فها هو الرجل قد أساء ، فهل لنا أن ننتزع منه هذا الحق لنضمه في يد القاضي ؟ وحينئذ لا يجوز للزوج أن يطلق زوجته إلا أمامه ، فنكفل بذلك مصلحة الرجل والمرأة معاً ، ونجعل بذلك رباط الأسرة في يد أمين بعيد عن الهوى ، خالٍ من الغرض ، قدير على التدبر والنظر والموازنة والحكم العادل !

هكذا أورد الأستاذ الأكبر سؤاله واضحاً لا يكتنفه غموض ، جلياً لا يحيط به لبس ولا تعقيد ، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على ألا تنسب إليه هذه الفكرة ، على أنها أمر قد دُبِّر فيه وفرغ منه ؛ ولكن على أنها سؤال قابل للمناقشة والبحث ، ولذلك قال للطالب : إني سائل فقط ، ولست قائلاً بهذه الفكرة ، ولا مقترحاً الأخذ بها ، ولا مشيراً بتشريع فيها !

ومسألة أخرى في رسالة الطلاق ، عرض لها الأستاذ الأكبر ، وشرحها شرحاً وافياً ، ذلك أنه ورد في الصحيحين أن الطلاق الثلاث في لفظ واحد كان سبباً في وقوع طلقة واحدة فقط على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة الصديق رضي الله عنه ، وفي صدر من خلافة عمر ، ثم قال عمر رضي الله عنه : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه . فهل لعمر بوصفه إماماً للمسلمين أن يشرع ما لم يشرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل له أن يبطل سببية معتبرة شرعاً ويضع موضعها سببية أخرى ؟ وكيف ذلك مع أن الحكم بسببية صيغة من الصيغ في استتباع أمر ما مما اختص به الشارع دون سواه ؟

يقول الأستاذ الأكبر : إن عمر لم يبطل سبباً ، ولم يضع سبباً ، وإنما رأى مصلحة في أن يمنع الناس من بعض ما أبيح لهم من قبل ، ذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً في لفظ واحد لم يلحقها بذلك إلا طلقة واحدة يباح للزوج معها أن يراجعها ما دامت في عدتها ، ويباح له أن يتزوج بها مرة ثانية إذا خرجت من هذه المدة بدون أن تنكح زوجاً غيره ؛ فكل ما فعله عمر أنه منع الأزواج من هذا الحق الذي كان مباحاً لهم ، فأصبح الزوج لا يستطيع أن يراجع زوجته من هذا الطلاق وهي في عدتها ؛ وأصبح لا يستطيع أن يعقد عليها إذا خرجت من عدتها إلا بعد أن تتزوج سواه ويطلقها ، وإنما منعهم من ذلك لمصلحة رآها . ومن المقرر أنه يجوز للحاكم أن يمنع الناس من شيء كان مباحاً لهم من قبل إذا كان للصالح العام مصلحة في ذلك

هكذا قرر الأستاذ الأكبر المسألة على هذا الوجه ، وفيها بعد ذلك وجه آخر لم يعرض له فضيلته هنا ، ولعله عرض له في مذكرة قانون الطلاق سنة ١٩٢٨

بين رجال الدين والفلسفة

تمهيـــد . . .

للأســـتاذ محمد يوسف موسى

هذا موضوع لا زلت به حفياً وله متطلباً . تصديت لبحثه منذ زمن ، وقرأت لأجله كثيراً من المراجع التي أرّخت الإسلام وحالة العلم والعلماء في العصور المختلفة . وقد أعلم أن بحث الخلاف بين رجال الدين والفلسفة أبيّ الزمام عسير العلاج ، وأنه حرى أن يجعلني مرمى النظر الشزر وغرض الألسنة الحداد . ولـكن الأيام وما خلعته من قداسة على بعض رجال الدين حالت دون نقد ما كان لهم من آراء وأحكام بالتحليل والتحريم والإيمان والتكفير ، وما كان لهذا من أثر جعل كثيراً يجمدون مع الزمن ويأبون إلا أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم . ولـكن الخصومة المشبوبة النار بين أنصار القديم وبين أنصار الجديد في الأزهر وغير الأزهر ؛ لـكن هذا وذاك جعلني أستسهل الصعب ، ولا أتهيب الخطر ، وأحاول أن أبين ـ بعد استعراض مراحل هذا الخلاف وألوانه ومظاهره عصراً بعد عصر ـ أن ما كان يوماً ما بين الدين وبين الفلسفة ، بل كان بين بعض رجال الدين وبين الفلسفة لبواعث يرجع بعضها لحب الدين والعمل على الذب عنه ، وبعضها يرجع للجهل والتعصب وحب الرياسات . هذا واجب يتعين على بعضنا أن يندب له نفسه ؛ لأنه مما يوجع القلب ويحز في الصدر ألا يزال الـكثير — حتى في هذه الأيام — يرى ما كان يراه بعض الذين اتخذوا الدفاع عن الدين وسيلة لذيوع الاسم من أن هـذا الفيلسوف ملحد وذاك كافر من غير بينة أو دليل ، إلا ما سمعه عن أحد أولئك الذين تقدم بهم الزمن ، دون أن يكلف نفسه محاولة الاطلاع على شيء من الآراء التي كانت السبب في الحـكم بالـكفر أو الإلحاد في الدين ، ودون أن يتعرف البواعث الحقة التي بعثت على هذه الأحكام ليعرف ما كان منها لله وما كان للدنيا وزينتها ! وأحب قبل كل شيء أن أجلو أمرى وأشرح قصدى من هذه المحاولة .

١ — لست من القائلين ببقاء القديم على قدمه ، ولا من الذين يعيبون بعض الشيوخ لـما شبوا عليه ، وانطبعوا بمرور الأيام به ، من الحياة حسب مناهج القرون الماضية وأساليبها ، والعزوف عن الجديد والتخوف منه ، وعدم القدرة على تحضير البحوث العميقة الشاملة التي تحتاج لـكثير من مراجع لا طاقة لهم بالرجوع إليها .

٢ — ولست لهذا من الذين يرون أن شخصية الأزهر العلمية منوطة بجماعة كبار العلماء وما يقدمون من رسائل لا نعلم عنها شيئاً إلا أنها تنفق ومبلغ جهود مقدميها ، وإلا أنها صور لا يستغنى عنها المؤرخ لأنها تعبر عن الحياة التي حيوها والنهج الذى درجوا عليه

هذه الشخصية العلمية للأزهر يجب أن يخلقها — إن كانت غير موجودة — الشبان الذين واتتهم الوسائل ، أو تهيأت لهم السبل ، وعرفوا طرق البحث وأساليبه ، وعلى حبل الذراع منهم ما يدنيهم من الغاية ويقربهم من المقصد . فلنقتصد من أجل هذا في اللوم ، ولنعمل على تدارك ما عجز عنه الآخرون غير ملومين ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

إن في ميدان العمل لمتسعاً لجميع الجهود الصادقة . هناك مثلاً كتب علم الـكلام في حاجة شديدة لمن ينفى عنها ما دخلها من آراء غير صحيحة النسب لمن تعزى إليهم من الحـكماء والفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب الـكلامية . هذه الـكتب يجب أن يتوفر على دراستها نفر من الأكفاء الذين درسوا علم الـكلام على النحو المعروف في الأزهر، وآخرون من الأزهريين الذين درسوا الفلسفة الإغريقية في مصادرها الصحيحة ، ليكون في مقدورهم تقويم ما فيها من تلك الآراء ونسبة ما يصح منها لأصحابها ، وتبيين ما دخل علم الـكلام من فلسفة اليونان تبييناً

أما بعد . فهذه أمثلة مما اضطلع به فضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المراغى من توجيه للأزهريين في « أيام الرواق » لم نقصد بها إلى الاستيعاب وإنما أردنا تنبيه الأساتذة والإخوان والأبناء إلى وجه العبرة منها ليستخلصوه وليعتبروا به ، وليعلموا أن مجال العلم والتحقيق أوسع وأجدى مما يتصوره عليه سادتنا الأعلام « أعضاء الجماعة » ، أولئك الذين قضوا عاماً كاملاً يتناقشون في حملة العرش ، وما صفتهم ، وهل هم أوعال أو غير أوعال !

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

فتنـــة الزّنج

ورثاء البصرة في شعر ابن الرومي

للأستاذ محمود الشرقاوي

– ٢ –

خلاصة

جئنا في مقالنا الأول عن فتنة الزنج(١) على مبدأ ظهور صاحب الزنج وبدء فتنته واستيلائه على العبيد والزنوج وخروجه بهم على الولاة حتى دخل بهم البصرة وخرّبها في شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين . وكان دخوله إليها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت منه ، فأباحها صاحب الزنج لأتباعه ليلة ويومين يفعلون بها وبأهلها ما شاءوا .

رثاء ابن الرومي

بدأ ابن الرومي قصيدته في وصف هذه الحال بهذه البداية الجازعة :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

أيّ نوم من بعد ما حل بالبصـ ـرة ما حل من هنات عظام ؟

أي نوم من بعد ما انتهك الزنـ ـج جهاراً محارم الإسلام ؟

إن هـذا من الأمور لأمر كاد ألا يقوم في الأوهام

ومن هذه البداية يشعر القارئ بما يريد ابن الرومي أن يوحي إليه من الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به محارم الإسلام » حتى أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام

ثم ينتقل بعد هذا الإيحاء وإثارة الغضب والسخط في قلب سامعه وقارئه إلى وصف ما يريد فيقول مجملاً في بيت واحد :

أقدم الخائن اللعين عليها – وعلى الله – أيّما إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى ما في نفسه من الحزن واللهفة على ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لهف نفسي عليكِ أيتها البصـ ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام

لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ ـرات لهفاً يعضني إبهامي

لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ ـلام لهفاً يطول منه غرامي

لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ ـدان لهفاً يبقى على الأعوام

لهف نفسي لجمعك المتفاني لهف نفسي لعزك المستضام

بهذه اللهفات المتواليات قد هيأ ابن الرومي قارئه لأن يقرأ وصفه القادم لما حلّ بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالغيظ والغضب الذي أوحاه إلينا في مطلع قصيدته . ثم يقول :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام

دخلوها كأنهم قطع الليـ ـل إذا راح مدلهم الظلام

(١) عدد ٣٩٧ من الرسالة

يرتفع به الشك وينجلي به الحق ، وتسهل معه دراسة علم الكلام. وهناك أيضاً مسألة أخرى أعدها هامة من الطراز الأول ، أعني بها تأريخ الأزهر ببيان الرسالة التي أنشئ أولاً لأجلها ، ومدى تطور هذه الرسالة على مدى القرون ، وما يجب أن تكون عليه في المستقبل ، وتأريخ رجالاته الأعلام حتى تصل للعصر الحاضر . إن من أعجب العجب أن يؤرخ مفكري الإسلام كثير من المستشرقين ومن بينهم العالم الفرنسي كارّادي فو Carra de Vaux في خمسة مجلدات تشمل ما يزيد على الألفين من الصفحات وأن نجد في المعجمات الفرنسية ترجمات لمن يجب أن يكون لهم ذكر في التاريخ، بينما كبار من خرجهم الأزهر ، ومن لهم علينا أكبر المنة — بما ندرس من مؤلفاتهم وبما أفادوا العلم في النواحي المختلفة — أصبحوا منسيين منا ولا نجد السبيل لتراجم لهم إن أردناها ! هـذا وذاك من الأعمال جدير بأن يستأثر بكثير من جهود من يرى في نفسه الكفاية منا حتى يكون لنا شيء نباهي به في العيد الألفي للأزهر ، وأرجو أن يكون منا غير بعيد

٣ — الغاية التي أستشرف إليها هي إذاً المساهمة — في غير تثريب على الغير من كبار الشيوخ الذين أدوا ما طلب منهم كما فهموه — في تهيئة بيئة علمية ينظر فيها الطالب بعقله لا بعقل أحد ممن سبقوه ، ويرى فيها الرأي لأن الدليل يعضده لا لأن الغزالي أو مثله ذهب إليه . بذلك يصح لنا وجه الحكم في العداء الذي زعموه بين الدين والفلسفة ، ويسهل الإقناع والاقتناع ، ونصحح كثيراً من قضايا الماضي وأحكامه ، ونبني على ماض غير مدخول ، وأساس متين لا وهن فيـه . وإلى اللقاء القريب — إن تفضلت الرسالة الغراء — إن شاء الله تعالى

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

أيّ هول رأوا به أى هول   حقّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين   وشمال ، وخلفهم ، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب   كم أغصّوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجّى   فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً   تَرِب الخد بين صرعى كرام
كم أبٍ قد رأى عزيز بنيه   وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مفدّى فى أهله أسلموه   حين لم يحمه ، هنالك ، حامى
كم رضيع ، هناك ، قد فطموه   بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة ـ بخاتم الله ـ بكر   فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوْها   بارزاً وجهها بغير لثام
من رآهن فى المساق سبايا   داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقام ـ وسط الزنج ـ يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتّخذن إماء   بعد ملك الأمام والخدام

هذه القطعة من قصيدة ابن الرومى قد رأى فيها القارئ كيف دخل الزنج على البصرة وأهلها على أحسن حال ، فكان جيشهم كأنه قطع الليل . وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال . ثم هو يقدم إلينا هذه الصور الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل فى قوة تصويرها . فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصّ بشرابه وطعامه ، وهذا هارب ضنين بنفسه قد جبهته سيوفهم وتلقت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه صريعاً قد عفّر التراب خده بين كرام غيره ، معفرة خدودهم . ثم يقدم إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج وفضّوهن جهرة بغير اكتتام . ثم ساقوهن إلى السبى يفرقونهن بينهم ويقتسمونهن مماليك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام

ثم يعود بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان إلى شعوره النفسى يوحى به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا   أضرم القلبَ أيما إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا   أوجعتنى مرارة الأرغام

ثم يعرج إلى ذكر صور مجملة بعض الآجال عن بيع السبايا وتخريب البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام . ودخول القصور العامرة كانت من قبل صعبة المرام . ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح وهى قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعماد أسواقها وتلك الفلك التى تسير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الأحكام من بنيانها ، وكيف استحال هذا كله — بفتنة الزنج — إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيد وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفى عليها الرياح :

عرّجا صاحبىّ بالبصرة الزهـراء تعريج مدنف ذى سقام
فاسألاها — ولا جواب لديها   لسؤال — ومن لها بكلام ... ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها   أين ذاك البنيان ذو الأحكام ؟
بدلت تلكم القصور تلالا   من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق(1) والحريق عليها   فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها ، فهى قفر   لا ترى العين بين تلك الآكام
غير أيد وأرجـل بائنات   نبذت ، بينهن أفلاق هام
ووجوه قد رملتها دماء   بأبى تلكم الوجوه الدوامى
وطئت بالهوان والذل قسرا   بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تسفى الرياح عليها   جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات   باديات الثغور ، لا لابتسام ... !

ولا شك فى أن القارئ يشعر بتلك القدرة الفائقة التى صور بها ابن الرومى ذلك المشهد ، مشهد خرائب البصرة وقصورها التى أضحت تلالاً ، ومشهد تلك الأيدى والأرجل مبعثرة فيها قد نبذت بينهن أفلاق هام ، ومشهد تلك الهام ملقاة خاشعة باكية قد بدا منها الثغر وبرزت النواجذ ولكن لا لتبتسم ... !

ثم ينتقل ابن الرومى بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حل به فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً :

بل ألما بساحة المسجد الجا   مع إن كنتما ذوى إلمام
فاسألاه ـ ولا جواب لديه ـ   أين عباده الطوال القيام ... ؟
أين عمّاره الألى عمّروه   دهرهم فى تلاوة وصيام
أين فتيانه الحسان وجوها ؟   أين أشياخه أولو الأحلام

(1) فى القاموس [بثق النهر بثقاً وبثقا وتبثاقاً كسر شطه ينبثق الماء] ولعل صاحب الزنج كان قد كسر « شط العرب » الذى تقع عليه البصرة ، فتصدق صورة ابن الرومى من حصارها بالماء والنار .

تحريض وإثارة

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومى قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية الصادقة عن وصف ما حل بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهييج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزنوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم . وهنا تبرز الغاية التى قصد إليها ابن الرومى ، ونعتقد أنه تعمدها حين بدأ قصيدته بتلك البـداية ... وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة فى التحريض والإثارة حين ذكر ابن الرومى « محارم الإسلام » ، وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدنا أن نسقطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمى - بغير حق - إماماً | لا هدى الله سعيه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذى يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله

كل هـذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجعلها ابن الرومى دعوة صريحة فى هذه القطعة التى ينتقل إليها بعد ذكر المسجد الجامع وعباده وفتيانه وشيوخه أولى الأحلام

أى خطب ، وأى رزء جليل | نالنـــا فى أولئك الأعلام
كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد | وفقيه فى دينــه علام
واندامى على التخلف عنهم ! | وقليل عنهم غنـــاء ندامى
وأحيائى منهم — إذا ما التقينا | وهم — عند حاكم الحكام
أى عذر لنا ؟ وأى جواب ؟ | حين ندعى على رؤوس الأنام
يا عبادى ! أما غضبتم لوجهى | ذى الجلال العظيم والإكرام ؟
أخـــذلتم إخوانكم وقعدتم | عنهم - ويحكم - قعود اللئام ؟
كيف لم تعطفوا على أخوات | فى حبال العبيد من آل حام ؟
لم تغاروا لغيرتى ، فتركتم | حرماتى لمن أحلَّ حرامى
إن من لم يغر على حرماتى | غير كفء لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً | وهو - من دون حرمة - لا يحامى

ثم يقدم لنا ابن الرومى بعد هـذا التحريض القوى هذه الصورة البارعة عن خصومة تخيل أنها واقعة بينه وبين النبى عليه السلام عن هؤلاء الشيوخ والفتيان وكيف لم يثأر لهم :

واحيائى من النبى إذا ما | لامنى فيهم أشـدّ الملام !
وانقطاعى إذا همُ خاصمونى | وتولى النبى عنهم خصامى !
مثّلوا قوله لكم - أيها النا | س - إذا لامكم مع اللوام
« أمتى ! أين كنتمُ إذ دعتكم | حرّة من كرائم الأقوام ...؟
صرخت : يا محمداه ...! فهلاّ | قام فيها رعاةُ حقى مقامى ...!
لم أجبها إذ كنت ميتاً فلولا | كان حىٌّ أجابها عن عظامى ! »

وأريد هنا أن أشير إلى براعة ابن الرومى إذ انتقل من خطاب نفسه فى الأبيات الأول إلى خطاب من يحرضهم حين بدأ يصف خصومة النبى عن قتلى الزنج فقال : « مثّلوا قوله لكم أيها الناس »

ثم يندرج ابن الرومى بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس إلى الدعوة الصريحة إلى الثأر من صاحب الزنج فى هذه القطعة التى هى ختام قصيدته ، والتى نكتفى منها بهذه الأبيات :

انفروا - أيها الكرام - خفافاً | وثقالاً إلى العبيد الطغام
أبرموا أمرهم وأنتم نيـام ، | سوءة سوءة لنـوم النيام
صدّقوا الظن إخوة أمّلوكم | ورجوكم لنـــوبة الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم | مثل ردّ الأرواح فى الأجسام
لم تقروا العيون منهم بنصر | فأقروا عيونهم بانتقـــام
أنقذوا سبيهم - وقلّ لهم ذا | ك حفاظاً ورعيـة للذمام
عارهم لازم لكم ، أيهـا النا | س ، لأن الأديان كالأرحام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلـ | ـد فأنتم فى غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرَض الأد | نى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

***

هكذا ينتهى ابن الرومى من قصيدته فى رثاء البصرة وفيما أصابها وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم

وأعتقد أن القارئ يجد أنى لم أكن مغالياً حين قلت فى ختام مقالى الأول عن هذه القصيدة من شعر ابن الرومى أنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربى ، وضوح بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع الشعر العربى كله

وأزيد على ذلك اليوم أن ابن الرومى كان فى تحريضه الناس وتهييجه لهم ، ماكراً خبيثاً وقوياً عارماً شديد التأثير ، يكاد شعره فى ذلك يدفعنا نحن الآن — أحد عشر قرناً — إلى الثورة والهياج

محمود الشرقاوى



المتعاظمون

هذا الفريق من بنى آدم أو هذا الصنف كثير شائع ، ولكنى أقصر الحديث هنا على بعض أصحاب السلطان منهم ؛ ولسوء حظك أو لسوء حظى أنا — على أقرب الرأيين إلى الصحة — أن يرى هؤلاء فى كثير من المجالس . ولست بحاجة إلى منظار ، بل ولا إلى عينين — لا قدر الله — لترى هؤلاء الناس ، أو تحس سلطانهم إن صح عندهم أنهم ناس من الناس ...

ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم وإن كانوا على رغم أنوفهم الشم ناساً يجرى عليهم ما يجرى على سائر الخلق لا يؤمنون إلا بأنهم فوق مستوى الناس ، وعسير عليك أشد العسر أن تقنعهم من بعيد أو من قريب بأن لهم مثلك يدين ورجلين وحواس وما إليها من جوارح وأحشاء ، وأنهم يأكلون كما تأكل ، وإن لم يكن مما تأكل ، وأنهم يشربون وينامون ويفرحون ويغضبون ويمرضون ويموتون كما يجرى عليك من أحكام الطبيعة سواء بسواء

هذا الفريق الذى أتحدث عنهم هم أصحاب السلطان من أصحاب الديوان . ولعلك لم تنس بعد أحاديثى عن أصحاب الديوان ، وإن كنت وقفت بك عند صغارهم لا خوفاً من كبارهم علم الله . وما لى أقسم وها أنذا أعرضهم عليك جملة وأحشرهم أمام المنظار فى غير تهيب ولا رفق :

ترى الشخص منهم — وهو شخص رضى أو لم يرض — فى ردهة من ردهات دور اللهو ، أو فى سيارة عامة ، إن لم تكن له سيارة خاصة ، أو فى عرض الطريق ، فتحييه تأدباً منك وعملاً بما يوجبه الذوق وتفرضه الإنسانية ، فيدهشك أنه يبدو عليه كأنه لا يلقى منك تحيــة ، بل تراه وكأنه يلقى منك إهانة ؛ وإلا فما باله وقد كان منبسط الأسارير : يتجهم لك ويشمخ بأنفه ويرميك بنظرة كريهة كأنه يريد أن يخيفك فى غير داع لذلك ولا مناسبة ؛ ثم يرد تحيتك الحارة برفع سبابته قليلاً تجاه رأسه العالى ، أو بإيماءة بسيطة ، ويمضى وكأنه لم يكن يرد تحية ، وإنما كان يرد على توسل سائل بإلقاء مليمين فى كفه المبسوطة ! ...

ولقد تعجب لذلك ، ولكن عجبك دليل بساطتك أو طيبة قلبك ... والحق أنى أريد أن أقول دليل « عبطك » فاقبلها منى ولا تدعنى أموه فأتحايل على الألفاظ ، والخير لك على أى حال أن تكون كما أذكر ، وتكون لطيفاً ، من أن تكون فظاً غليظ القلب ، وإلا فلك الخيار ، ولكن على شرط أن يتوافى لك السلطان قبل كل شىء ...

وفيم تعجب وعنده أن التحية توجه إلى مقامه ممن هم دونه ، إنما هى ضرب من عدم الاحتشام بين يديه ، فهى لذلك ضرب من عدم اللياقة ، أو هى جرأة تلحق بقلة الأدب عند بعضهم ، وما أردت أنت إلا أن تكون مؤدباً ... ولقد يصور له كبرياؤه وغروره أن ذلك منك تحد لذاته الخطيرة والعياذ بالله ، وفى ذلك سر تجهمه وتعاظمه وكريه نظراته وتفسيره تأدبك بأنه قلة أدب

وكأنى بك ، أيها القارئ ، تضحك منى وتقول فى نفسك إنما يصور بما يكتب ما وقع له ، وأريد أن أكون صادقاً ، فأسلم لك بصحة هذا ، ولكن قل لى بربك ، ما ذنبى لتضحك منى يا أخى — سامحك الله — وأينا أجدر بضحكاتك ، أنا أم ذلك المتعاظم المتكبر ؟ ثم اعلم أنى لم أغضب ولن أغضب لما يكون بينى وبين هؤلاء المتعاظمين . لم أغضب لأن ما حدث هو ما كنت أتوقعه ، بل إنى لأضحك إذ أقع من ذلك على مادة لمنظارى ، ثم إنى لن أغضب لأنى أعرف كيف أكيل لهم بنفسى كيلهم متى أردت ، فأزيدهم غيظاً وأزداد منهم ضحكا ، ولو علمت الحق لرأيت أنى دائماً ألقاهم بالعصيان المدنى ، وهو سلاحى السلبى الوحيد الذى لا سبيل لى إلى غيره

جمعنى بفريق من هؤلاء مجلس من المجالس ، أو قل قادتنى الظروف على رغمى إلى هذا المجلس ، فما كان لى أن أغشى مجالس أصحاب السلطان مختاراً ، فانتحيت ناحية وجلست ، وقادت الظروف كذلك بعض أصدقائى ممن هم فى مثل سنى ، وفى مثل مركزى الصغير ، فحمدت الله وزال عنى القلق ، فلقد كنت أحس نفسى غريباً قبل مجىء هؤلاء الذين لا حول لهم ولا سلطان ، وانفرجت شفتاى لأول مرة منذ جلست أرد على تحيات هؤلاء الأصدقاء ، فما وجه إلى أحد من أصحاب السلطان تحية تنفرج لها الشفاه ،

فلم تك ثمة إلا إيماءات متكلفة لاذعة قصيرة، أو إشارات باليد آلية لا روح فيها ، اللهم خلا رجل منهم تلطف فجاد عليّ بتحية منادياً إياي باسمي ولكن بعد أن فعل ذلك من هم على شاكلتي من الخلان

وجلست صامتاً أترقب وأنا أخفي ضحكي مما رأيت على وجوه أصحاب السلطان من معاني الازدراء عند دخول أصحابي ، ولقد حياهم هؤلاء السذج في أصوات طلقة ، وفي إشارات وانحناءات دمثة جميلة ، فما عادوا إلا بأشارات وإيماءات أرستقراطية كانت هي الأخرى جميلة على رغمي وعلى رغم منظاري !

واستأنف أحد أصحاب السلطان ما كانوا فيه من حديث ، واحتدم النقاش بين هؤلاء السادة، فهذا يعترض على ذاك ، وذلك يرى ما يرى جاره أو لا يرى الصواب في رأيه ، وفي وجوه الجميع بشر أو تحمس أو ضحك من دعابة أو نكتة يطارد من هاتيك الوجوه شبح الكهولة أو يستمهل الشيخوخة لحظات

وبدا لأحد السذج من الرفاق – رفاقي أنا – تخشر نفسه في الحديث يحسب أنه يكافئني أو يكلم أحد أقرانه ، فما أسرع ما بدت الدهشة على وجوه الجميع ! ثم تغافلوا عنه بأطراقهم ، وقطع عليه أحدهم كلامه فساق الحديث إلى رأي جديد ، وذهبت كلمات المسكين هباء أو أقل من الهباء

ثم تكلم شاب آخر لم يتعظ بما جرى لسالفه فكان من أحب المناظر عندي ، ولا أقول من أبغضها أن أرى على وجوه أولئك السادة ذلك الاتفاق الذي لم يقصدوا إليه لأنهم اعتادوه كلما تطفل على حديثهم العالي متطفل لم تصل بعد مداركه إليه ولا هيأه مركزه حتى لمجرد الاستماع له ، وهو اتفاق على المقاطعة أو الإغفال لأمر المتكلم . وأحسب أنهم لو نظروا ساعتئذ إلى ذلك الساذج الثاني لأخذتهم الشفقة لحمرة الخجل تتوقد في محياه فما تقسو قلوبهم إلى حد أن يعرضوا عنه وهو على تلك الحال

على أن اثنين منهما رمياه بنظرة ولكن بعد أن خفت في وجهه حمرة الخجل ورأيتهما يزدريانه في صمت، فهو مرؤوسهما في الديوان ولا يجمل به أن يجرؤ مثل هذه الجرأة فيناقش رؤساءه . وكم أتمنى لو يتاح لي من البيان ما أصور به ما ارتسم على محياها الكريمين من اشمئزاز ! وكم يؤلمني ألا تسعفني الألفاظ بما أريد !

وأتى أحدهم بنكتة تصلح لأن تكون نكتة ولكنه أتى بها لسوء حظه في ضجيج من النقاش فلم يفطن إليها غيري فضحكت بصوت يسمع فالتفت نحوي ضاحكا مسروراً وصاحب النكتة يبحث دائماً عن الضاحكين من نكتته ويسر إذ يجدهم . . . على أن هذا ما لبث أن قطع ضحكته بغتة كأنما أزعجه أن يتبادل وإياي الضحكات ثم تكلف العبوس ونظر إليّ ولكني لم أقطع ضحكي فقد كانت هذه الحركة منه أدخل في معنى النكتة من عبارته وأدعى إلى الضحك منها

وما يريد أصحاب السلطان ممن هم أصغر منهم إلا أن يتزلفوا إليهم فينهضوا وقوفاً إذا أقبل أحدهم ويشيعوه إذا انصرف ، فإذا تقدم أحد هؤلاء الصغار ففتح باب السيارة حتى يركب « سعادة البك » أو حمل له معطفه حتى يلبسه فذلك هو ما يكبر به في عين سعادته ولذلك دخل كبير في قياس كفايته في عمله وإن لم يكن لعمله صلة ما بعمل « الجرسونات » ! والعجيب أنك ترى الرجل من هؤلاء يتصاغر وينكمش كأنما يدخل بعضه في بعض إذا كان أمام من هم أكبر منه وذلك بقدر ما يتعاظم وينتفخ إذا نظر إلى من هم دونه

وبعد فقد أفهم أن أرى أصحاب السلطان في دواوينهم متعاظمين وإن عد ذلك مرذولاً منهم أينما كانوا ، فإن الرجل منهم يكون هناك في « منطقة نفوذه » وما يذهب إليه في الغالب حيث مقر سلطانه إلا طالب حاجة عنده

ولكن كيف أفهم لعمري أن يتعاظم عليك هؤلاء خارج دواوينهم ولقد تكون بحيث لا تربطك بهم صلة من عمل أو من حاجة ؛ بل كيف يتعاظمون وإن كان يصلك بهم العمل أكبر صلة وإن منهم من لا يفضلك إلا بما ساقته إليه الظروف من منصب بحيث لو رجع القهقرى إلى مثل سنك لكنت أحسن منه عقلاً وأقوى تفكيراً وأكثر اطلاعاً . ولقد تكون اليوم أكثر منه ذكاء على رغم جاهه ، بل ولقد يكون من الغباء بحيث لا يصح أن تقيس عقلك إلى عقله إلا إذا أردت أن تمتهن نفسك

وبعد فنحن أمة تكثر الكلام في الديموقراطية وتبالغ في السخرية أحياناً من حيث لا تدري فتعطيل الكلام عن الانتخابات مثلاً أتكون مباشرة أم غير مباشرة ؟

الخفيف



إن كنت فناناً !

... فهـــذه نفسى !

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

يارب محمد ! أستغفرك يارب محمد !

أعصابى متراخيـة . عقلى نائم . عيناى تريدان أن تنطبقا كأنهما زهدتا النور ، وما هو زهد ولـكنه تسليم

نفسى تهرب منى ، وتتحجب منى ... أريد أن أعرف ماذا بها ؟ أسألها فيقع السؤال فيها كما تقع الحجرة على كومة التبن المحروق ، فلا صوت ، ولا رد على الصوت ، ولا شيء

إذن فماذا بقى لى ؟ لا شيء !

وإذن فماذا أصنع ؟ ... لا شيء . والصبر طيب . والنجدة عند رب محمد ...

اللـهم إنى قد أسأت ، اللـهم إنى قد أسأت !

هأنذا أعترف لك وما أنت بحاجة لأن يعترف لك مذنب . ولكنى أريد أن أفضح نفسى لعلك تريد بعد ذلك فتمحو بلطفك وكرمك ما سطرته على جبينى بحكمتك وخبرتك من الإثم ، وآثار الإثم ...

لن أعدد ما ارتكبت ، فإنى لا أحصيه . ولـكنى أقول إنى ما تركت إثماً إلا واقترفته

ولقد كان شر آثامى أنى فى يوم أنكرتك . أعوذ بك من نفسى . وأعوذ بك لها

لقد انطلقت يوماً أعربد بروحى وبدنى ، وأقول — وبئسما كنت أقول — إن الخبطة العشواء التى أوجدت هذا الـكون وإنما أوجدتنى حكمتى فى الكون كما حكمت الكون فىّ ، فما دام هو يأخذ منى فلآخذ منه ، وما دام هو يستبد بى فلأستبد به ... ومن أنا ... ؟؟

حقاً إنى كفرت يا ربى . ولـكنى لا زلت أتوسل إليك حتى بكفرى . فقد كنت أحبك وأنا منكرك

ألست أنت صاحب هـذا البحر الذى كنت أصارع الريح وأنا ساع إلى أعتابه فى ليالى الشتاء العاصفة المقمرة لأجلس عنده وأنا سكران فى يدى السيجارة كلما شهقت منها نفساً شهقت معه من البحر أملاً ، وكلما زفرت نفساً زفرت معه إلى البحر هماً . لقد كنت أتبادل الأنفاس مع البحر ، هذا الوحش المحبوس عن الأرض الراضى بالحبس

لقد كنت أحبه . ولقد أحبنى هو أيضاً فأعطانى الـكثير من نفسه : جلداً ، وصبراً ، وصفاء ، وغنى ، وحياة ، وقوة ... ومسكنة مع هذا كله وذلاً

لقد سبحتك فيه يارب لأنى كنت أراه وأبادله الحب ، وكان عقلى أصغر من أن يؤمن بك غيباً

ثم ألست أنت صاحب تلك الماسة التى كانت تريق علىّ أضواءها فأشرب منها وأشرب وأشرب وأنا لا أدرى لماذا لا أرتوى على كثرة ما أنا شارب حتى علمت أن ما كنت أشربه لم يكن إلا نوراً ، والإنسان لا يرويه النور وحده إن لم يمزجه بشيء من الظلمة . فلما بحثت عن الظلمة انفلت النور منىّ ، وكف يده عن أوتار قلبى

من يومها يارب وأنا غارق فى ظلمات وظلمات ولـكن بعد أن آمنت بالنور . فاللهم شعاعاً ، رحمة منك وعزاء

ثم ألست أنت صاحب حديقة النزهة ... أنت صاحبها رغم أنف المجلس البلدى

كنت كلما اكتأبت وثقلت على واجبات الجبر والـكيميا ، وأرهقتنى حياة المدرسة الجـافة التجأت إلى النزهة أفرغ فيها ذبولى وآخذ من أزهارها وأشجارها نضرة ... وبهجة ... واطمئناناً وفرحاً ...

ما أكرمها الأشجار والأزهار ! ما أحلاها ! إنها تتضور حباً ، وتشرئب إلى عاشق يهفو إليها بنظرة ... وخفقة

وما أقسى عشاق الأشجار والأزهار ... أطمعهم صمتها وسكونها واستسلامها فانهالوا عليها قطفاً ... والقطف قتل ... وأكرمهم يجود عليها بشعر . والشعر كلام ...

إننى لم أسرف يا رب فى قطف الأزهار ، واسألها

كنت أقنع بالذى تنفثه هى راضية من الحنين المؤمل ، والشهوة المتبخرة الرطبة ... وكنت أعود عنها إلى المدرسة وأنا كالقرنفلة الناطقة الحية : أبذر فى قلوب الناس حباً أبعثره وأبعثر وراءه من

تلك الزأرة التي أعطانيها حبيبي الأزرق ذو الأمواج وذو الأنفة !

ثم ألست أنت صاحب هذه السماء التي كنت أتقلب على الرمال إليها لأسرح بنفسي فيها مرتحلاً من نجم إلى نجم، ومن كوكب إلى كوكب، متباعداً عن الأرض ما استطعت، مختاراً من أكوانك أقصاها كأنما كنت أريد أن أستوعب ملكك،

فما استوعبت شيئاً وما كنت إلا لأرتد حسيراً، ولكن بعد أن تطول حيرتي فيك وفي ملكك ...

سبحانك ! قد خلبت لبي ...

يا صاحب الصحراء تخرج فيها الحي من الميت ... يا لمسرحك هذا الأقفر من مسرح !

يا صاحب الناقة الصابرة ! يا صاحب النخلة المتكبرة ! يا صاحب السلحفاة الصائمة الساخرة ! يا صاحب الغزالة النافرة !

أليس هذا فنك ! وهل عشقت سواه حين كنت أنكرك ! ما عشقت سواه وأنا منكرك ! ولا عشقت سواه وأنا راج أن أعرفك؛ وما سوى ذلك إلا العدم، فكل موجود من أثرك وصنعك

يا رب محمد ! أستغفرك !

وأحمدك وأشكرك. فلقد ذكرتني بك حين أنسيتني نفسي، وأنا حين أذكرك أهدأ وأطمئن، لأني أعرفك الرحمن الغفار الذي ينقشع أمام رحمته وغفرانه كل ضلال وكل عطب؛ والذي إن عاقب أرسل في العقاب راحة ورضى، وقرن بالعسر يسراً. وإن مع العسر يسراً

بدأت أنتعش ...

زوابع من الإسكندرية تناديني. أريد أن أنطلق. أريد أن أعربد مرة أخرى؛ ولكن عربدة المؤمن المطمئن

أريد أن أصرخ. أريد أن أبطش بهذه الظلمات التي بطشت بي حين أمنت إليها. أريد أن أقيم الدنيا وأقعدها. فهل أنا قادر من ذلك على شيء ...

إذا أردت أنت فإني قادر، وإذا لم ترد فها أنذا كما أردت ...

قلبي ينبض بالأمل فيك، وعقلي شارد وراء هذا الأمل يريد أن يعرف ما هو، ولكنه تعب ولم يعرف ما هو ... فأرشدني.

ليس أشهى لدي من أن أشعر بأني أرضيتك وأنك أرضيتني وأنا طامع، دنيء النفس. قد أتخم ولكني قد لا أشبع.

أنت الذي خلقتني. فساعدني على نفسي. وخذ بيدي، وأنت تستطيع. ولا أحد غيرك يستطيع.

أنت تطالبني بالتوبة؛ ولكنك أرجأت التوبة في قرآنك إلى سن الأربعين. فلي الآن إن مددت في عمري عشر سنوات باقية قد أستجديك بعدها عشراً، وقد أستجديك بعدها عشراً، فما أحسب التوبة ممكنة وفنك الخلاب يدغدغ العيون، ويناوش الأسماع، وينكث القلوب ...

ثم لماذا يتحتم علي أنا أن أتوب ؟ !

أأنا إنسان عاقل ورشيد ؟! إني لا أظن ذلك. فليس عاقلاً رشيداً هذا الذي يستمرئ أن يفضح نفسه بنفسه. ولا هو عاقل رشيد هذا الذي يطاول من هم أشد منه قوة وآثاراً في الأرض، وينوخ للضعيف الهزيل يركبه ويضرب بطنه برجليه ...

أنا يارب كما تعلم. فعافني. واسمح لي أن أقضي في ملكك هذا ما قدرت لي من البقاء وأنا تحت رعايتك وعطفك. فلست إلا طفلاً غراً آفته دلال استحكم في نفسه من كثرة ما استقاه وعبه من نفح القرنفل والياسمين

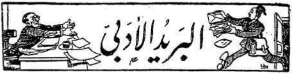
واحمني يا رب من الشر أن يسكن نفسي. واملأ قلبي سلاماً. وانزع منه كل حقد وكل غل

واحمني يارب من الشر أن يقذفني به حاقد أو مغلول؛ فأنا أعجز من أن أتقي قذائف الشر المتستر، ولدغات الحقد والغل

يارب محمد. احفظ يحيى السيد فقد أقرضني اليوم عشرة قروش، وإن كان لا يعرف متى سيستردها

هو طالب في ليسانس الحقوق. فخذ بيده في امتحانه القريب ... أرجوك بحق محمد

عزيز أحمد فهمي



المسلمون «قوارى» الله فى الأرض

وردت لفظة من الجموع الشاذة فى قول لابن الخياط (أوغيره) فى الإمام مالك :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
هدْى التقى وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

فى كتاب (الحيوان) للامام أبى عثمان الجاحظ ذى الأحاديث الطلّة[1] المنورة ، فقال محققه وشارحه الأستاذ عبد السلام محمد هرون فى أمر تلك اللفظة :

« نواكس جمع ناكس وهو من الجمع الشاذ وقد أسهب البغدادى عن نحو هـذا الجمع فى الخزانة (١ : ١٩٠ — ١٩٥) وفى مجلة الرسالة المدد (٣١٥ ص ١٣٩٤) بحث قيم ، واستدراك طيب لهذا الشذوذ[2] »

راجعنا هذا البحث فى (المجلة) فألفينا فيه ثمانية عشر جمعاً لكنه قد فاته جمان ذواشان . ولا نقول : إن سبب هذا الفوت هو قلة الاستقراء أو العجز إذ لا نجهل أنها لغة العرب بل لغات العرب كما أنا ما نسينا ما روى فى (الرسالة) عن (رسالة الإمام الشافعى فى أصول الفقه) : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى » وذانك الجمان الشاذان الفائتان هما القوارى والسوابق

١ — فى الفائق : فى الحديث : الناس قوارى الله فى الأرض ، وروى المسلمون ، وروى الملائكة . وفى الصحاح : الأصمعى : الناس قوارى الله فى الأرض أى شهداء الله ، أخذ من أنهم يقرون الناس أى يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم . حكاه أبو عبيد فى المصنّف . وفى النهاية : أى شهوده فإذا شهدوا الإنسان بخير أو شر فقد أوجبَ[3] ، وأحدهم قار ، وهو جمع شاذ ؛ حيث

(١) طل وطلة لا طلى ولا طلية . يراجع (حديث طل) الرسالة ٢١٨ ص ١٤٧٤

(٢) الجزء ٣ بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هرون ص ٥٨٢

(٣) أوجب فلان وجبت له الجنة أو النار ، وهذه موجبة ، وركب الموجبات (الأساس) قالوا : الموجبة تكون من الحسنات والسيئات

هو وصف لآدمى ذكر كفوارس ونواكس .

جرير :

ماذا تمد إذا عددت عليكم والمسلمون بما أقول قوارى[1]

راجز :

حدثنى الناس وهم قوارى
أنك من خير بنى نزار
لكل ضيف نازل وجارى

٢ — قال محمد بن مالك : ... وشذ فى الفارس مع ما ماثله .

قال ابن عقيل : وشذ فارس وفوارس وسابق وسوابق

حماسى[2] :

إن تبتدر غاية يوماً لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

القنانى فى مدح الكسائى :

أبى الذم أخلاق الكسائى وانتحى به المجد أخلاقَ الأبُوِّ السوابق[3]

أغلب الظن أن نديدةَ سيبويه قد أجبره تضمين فى الفعل (انتحى) أو حذف وإيصال كما سره هذا الجمع اللطيف للأب وهذا الجمع الشاذ ، إنهم النحاة ...

* * *

ضبط الكتابة العربية

أصدر معالى وزير المعارف قراراً جاء فيه : أنه رغبة فى ضبط الكتابة العربية ، بحيث يمكن أن تقرأ فى غير تعرض للخطأ واللحن ؛ وفى تقريب قواعد اللغة العربية إلى فهم الجيل الحديث

(١) هذه رواية الفائق ، وفى الديوان : ماذا تقول وقد علوت عليكم

(٢) فى الحماسة : بعض بنى قيس بن ثعلبة . وفى الكامل : رجل يكنى أبا مخزوم من بنى نهشل بن دارم . هو بشامة بن حزن النهشلى

قلت : أما أبو العباس فقد سكت عن السوابق وأما التبريزى فقد قال : إنما قال (المصلين) ولم يقل المصليات مع السوابق لأن قصده إلى الآدميين وإن كان استعارها من صفات الخيل ، ويجوز أن يكون أخرج السابق لانقطاعه عن الموصوف فى أكثر الأحوال ولنيابته عن الجلى — وهو الاسم الأول منها — إلى باب الأسماء فجمعه على السوابق ... قلت : قل : إنه شاذ واسترح ...

(٣) هذه رواية ابن يعيش في شرح المفصل ورواية اللسان والتاج هي هذه :

أبى الذم أخلاق الكسائى وانتمى له الذروة العليا الأبو السوابق

روايات ...

دون أن يكون فى ذلك مساس بجوهر اللغة وأصولها . ورغبة فى تشجيع الأدباء المعاصرين على تصوير الحياة الحديثة فى أدب يجمع بين نشر اللغة وروعة الأسلوب ، تقرر أن يمهد إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى أن يدرس ما من شأنه تيسير الكتابة العربية وقواعد النحو والصرف ، والتماس الوسائل إلى تشجيع الأدباء على التنافس فى الإنتاج الأدبى الممتاز ؛ على أن يعرض المجمع على معالى الوزير فى نهاية هذا العام ما تصل إليه مباحثه من النتائج

وقد أبلغ هذا القرار إلى حضرة المراقب الإدارى للمجمع للعمل على تنفيذه

تحريف معنى بيت بالنحو

وعجيب أن يحرف معنى بيت بالنحو وهو لم يوضع إلا لصون اللسان عن الخطأ فى الكلام ، ليصح المعنى ويستقيم الفهم ، وهذا البيت الذى حرف النحو معناه هو قول الشاعر :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

فأو فى البيت من النواصب التى تنصب الفعل المضارع بنفسها عند الكوفيين . وبأن مضمرة عند البصريين ، وهى فى البيت بمعنى إلى ، وعلى هذا يكون معنى البيت : ليكونن منى استسهال للصعب إلى إدراك المنى ، لأن الآمال لا تنقاد إلا لمن يصبر على تحمل الصعاب فى سبيلها — فهناك صعاب يستسهلها أولاً ؛ ثم يكون بعدها إدراك المنى ، ويجتمع فى ذلك الأمر أن اجتماع السبب والمسبب ؛ ولكن علماء النحو لا يرضون إلا أن تكون أو عاطفة مع كونها ناصبة ، ويجعلون المعطوف المصدر المنسبك من الفعل المنصوب بها ، ويجعلون المعطوف عليه مصدراً متصيداً من الكلام السابق عليها ، ويكون تقدير البيت على ذلك العطف الذى يتكلفونه : ليكونن منى استسهال الصعب أو إدراك المنى — وهنا يقع التحريف فى معنى البيت ، لأن أو العاطفة لها معان غير معنى أو الناصبة ، وقد جمع ابن مالك معانى العاطفة فى قوله :

خَيِّرْ أبِحْ قَسِّمْ بأو وأَبْهِمِ واشكك وإضراب بها أيضاً نُمِى

وربما عاقبت الواو إذا لم يُلف ذو النطق للبس منفذا

أما أو الناصبة فتكون بمعنى إلى أو إلا ، وكلاهما ليس من من معانى أو العاطفة ، ولهذا كان تقدير البيت على العطف تحريفاً لمعناه ، وخروجاً به عن معنى إلى المقصودة منه

عبد المتعال الصعيدى

حول الإنتاج الأزهرى

قرأت فى مقال الأستاذ عبد العزيز محمد عيسى « الإنتاج الأزهرى » فى عدد الرسالة ٣٩٧ ما يلى :

« أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ فى سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً فى البلاغة لمعاصرين من غير الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين فى البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها »

ولعل هذا الذى يراه الأستاذ لا يراه أحد سواه ، أو لعله إذا نظرنا إليه بالعين التى رآه هو بها لعددناه آخر العيوب إذا لم يكن بد من احتسابه أحد العيوب

وإذا كانت الجامعة المصرية قد تقدمت الجامعة الأزهرية خطوات فى الإنتاج والتأليف فهل قال أحد أساتذة الجامعة بوجوب أن تكون كل الكتب التى تقرأ فى الجامعة من إنتاج الجامعيين

ولقد أشار الأستاذ إلى ما سنته وزارة المعارف فى إعلانها عن الكتب التى هى فى حاجة إليها ، وأريد أن أقول فى هذا الصدد هل طلبت وزارة المعارف أن يكون المتقدمون للمسابقة ذوى ثقافة معينة أو يشغلون مراكز معينة فى شعب التعليم ، ولعله ليس ثمة شك فى أنه لو تقدم أحد الأزهريين لمسابقة وزارة المعارف ورأت لجنة التحكيم أن كتابه أفضل الكتب المقدمة لما وقع الاختيار على غير كتابه

محمود أحمد وصيف

كتاب « تشرتشل »

لا شك أن ونستون تشرتشل هو رجل الساعة فى بريطانيا ؛ ويتصل التطور الذى حدث فى الحرب أوثق اتصال مع رآسته للوزارة الإنجليزية

ومن عجب أن هـذا الشيخ الكبير لا تزال فيه ذخيرة من الفتاء والشباب تستمد منها انجلترا فى أحرج الساعات التى تمر بها الآن

ولقد كتب الكاتبون عن أعـداء الديمقراطية وذكروا حياتهم ؛ ولـكن صديقنا محرر المقتطف يكتب أول كتاب عن أول منافح عن الديمقراطية وأول مكافح لشرورها فى العالم . ولعله يتحفنا بعد كتابه هذا بكتاب عن حياة (روزفلت) صديق الديمقراطية فى العالم الجديد ، فإن سير هؤلاء العظماء تعمل عملين : تحييهم من ناحية ، وتحيى همم القارئين من ناحية أخرى

وكتاب تشرشل ظهر فى سوق الأدب فى حينه المناسب ، وفرصته السانحة ، فإن هذا الرجل يزداد نجمه كل يوماً ألقاً وسطوعاً ؛ وهو إلى جانب إرادته الماضية وعزيمته الصممة أديب كبير ، وأدبه من نوع خلقته القوة وصاغته الشيئة فخرج أدباً قوياً . فله كتاب فى وصف الحرب العظمى . وله ترجمة لوالده اللورد راندولف تشرشل ؛ وله مئات من المقالات وعشرات من الخطب التى تفيض بالإيمان القوى : إيمان الواثق بنفسه لا المغرور بما يملك

يصور هذا الكتاب حياة تشرشل تصويراً عذب السياق ، حلو السرد ؛ قرأته فما مللته ولا غالب النوم جفونى أثناء مطالعته . وكيف ينام الإنسان وهو يقرأ حياة حية يقظة ، حياة قوية فتية ، حياة ملأى بالمفاجآت والمغامرات

وتشرشل من يومه يحب الصيال والنضال ، ولعل نضاله اليوم هو أعلى مثل لما يستطيع الرجل المسئول أن يفعل ، وهو يتكلم ... ولـكن أفعاله دائماً أكثر من كلامه . وقد أشار هو نفسه إلى ذلك فى خطبته الأخيرة التى أذاعها على الشعب يوم ٩ فبراير حيث يقول : « فى أوقات الحرب توجد أشياء كثيرة تستحق القول ولكن شعارنا دائماً الأعمال لا الأقوال »

إن كتاب الأستاذ فؤاد صروف عن تشرشل هو قطعة من أدب الحرب ؛ وكثيراً ما كتب صديقنا فى أوقات السلم عن العلم والصناعة فأجاد فى كل فن تناوله . وهو حين يكتب اليوم عن حياة رجل كُتب له أن يدير أفظع حرب عرفها التاريخ فإنما تجىء كتابته دائماً على الغرار الذى عودنا والنهج الذى طالعنا . وهو غزار فيه وضاحة فى التعبير ، وتسلسل فى الأداء ، ومتابعة للحوادث

لقد قرأنا كثيراً عن وحوش هذه الحرب الطحون . فهل آن لنا أن نقرأ عن مصارعى تلك الوحوش ؟

الحق أن كتاب تشرشل هو أول خطوة فى هذه السبيل ؛ فلعلنا نسمع غداً عن وايفل ، وويلسون ، وأوكونور ، وماكى ، وبيفر بروك ، ومانكساس ، وغيرهم من أبطال النضال وأعلام القتال !

إن تاريخ هؤلاء العظماء يجب أن يتلى فى كل زمان ومكان ، ويجب أن ينقل إلى كل لسان . لأنهم — كما كتبت إلىّ مس سانتز الكاتبة الأمريكية — لا يدافعون عن بريطانيا فحسب ، ولـكنهم يدافعون عن قضية الحق والسلام .

محمد عبد الغنى حسن



فنـــدق الدانوب

للأستاذ محمود البدوى

عدت إلى كونستنزا ونزلت فى « فنـدق الدانوب » مرة أخرى كما شاءت كاترينا ، على الرغم من أنه ليس من الفنادق التى نشتهى فى هذه المدينة ، فهو يبعد عن البحر ويبعد كذلك عن أنظار السائحين ، والجانب الأكبر من حجراته لا يدور مع الشمس ، ولا يشرف على مناظر خلابة ، وهو إلى جانب هذا يقع فى قلب المدينة ، وعلى خطى قليلة من الخط الحديدى ، فالمقيم فيه ينام على صـوت العجلات وهى تدوى على القضبان ، وينهض على صفير القطر وهى تبرح المحطة !

على أن كل شىء يتحول فى نظرك إلى جمال وفتنة عندما ترى كاترينا ... تلك الفتاة الروسية الجميلة التى تعمل فى الفندق

وكنت قد لبست حلتى وتهيأت للخروج عندما دخلت كاترينا غرفتى تحيينى فى ابتسامة ساحرة ! وحسرت ستر النافذة وقالت ووجهها مشرف على الطريق :

— نمت نوماً عميقاً وحلمت بكاترينا كالعادة ؟

— أجل يا كاترينا ... وحلمت أننا نجرى على ساحل البحر فى كارمن سلفيا ... وأنت تطفرين من المرح وتقذفيننى بالكرة ... والآن ، هل تحققين هذا الحلم ... ؟

— ماذا ؟ أتنزه معك ؟ والعمل والفندق ؟ ... أنا لا أمشى مع الشبان فى الطرقات ... !

— طبعاً يا كاترينا ... أنت لا تمشين مع الصعاليك من أمثالى ... !

— آه ... صعلوك ... ماذا تقول صعلوك ؟ ... لا تقل هذا

ومالت بخصرها على مائدة صغيرة فى الغرفة وهى تهتز من الضحك وتزيح خصل الشعر المتدلية على جبينها ، وتمر بأناملها على فمها ، وقد تورد وجهها وأشرق محياها ... ثم سكنت نأمتها ... وأخذت ترنو إلى وعلى وجهها سحنة الفتاة الريفية التى لا تعرف من حروف الحياة شيئاً ... وقالت بصوت حلو لين النبرات :

— أنت لا تعرف شعور الفتاة يا شوق ... كيف أخلع رداء الحياء وأمشى على شاطئ البحر شبه عارية وعيون الشبان تأكلنى ؟ كلا ... أنا فتاة من أسرة روسية معروفة ... وأنت تقول لى هذا الكلام لأنك لا تعرفنى ... ترى أمامك فتاة فقيرة تعمل فى فندق ... هذا هو كل ما تعرفه عنى ... إفهم شعور العذراء يا شوق !

— طبعاً ... أنا أعرف شعور العذراء يا كاترينا ... ولكن هذا لا يمنعك من التنزه معى لترى الدنيا ... الدنيا ليست هنا فى هذا الفندق ...

فاحمر وجه كاترينا ، وأسبلت جفنيها ، وغضت رأسها كطفل صغير ارتكب عملاً يعده مزرياً ... ثم رفعت أهدابها وقالت بصوت خافت :

— كيف أخرج معك بهذا الثوب ... ؟ أنظر ... !

ونظرت إلى ثوبها وكان يبعث على الرثاء حقاً ... !

— أليس معك غيره يا كاترينا ؟

فغضت رأسها ثانية ، وانسدلت أهدابها على هاتين العينين الزرقاوين اللتين لا تعرف من أسرارهما وتعابيرهما شيئاً ...

ورفعت جبينها وقالت ويدها على عاتقى :

— أبداً ... أنا فتاة وحيدة وفقيرة ... !

— سأجود لك بثوب جديد يا كاترينا ...

فاهتز جسمها ... كأن سيالاً كهربائياً سرى فى ألياف لحمها ... وطوقتنى بذراعيها وقالت وهى نشوى طروب :

— والآن ، سأجئ لك بالإفطار ... وسنفطر سوياً ... ولـكن لا تأكل الطعام كله كما تفعل دائماً ، ولا تدع للصغيرة المسكينة كاترينا شيئاً ... أوه ... أنت مروع !

* * *

رجعت ذات ليـلة إلى الفندق متأخراً ، بعد أن قامرت وأفرطت فى الشراب ... لعبت الروليت فى الكازينو وخسرت كثيراً ، وطيرت الخسارة الأحلام من رأسى ... وصعدت

درجات الفندق متثاقلاً حتى بلغت غرفتى ... وقد خيم السكون العميق على الطابق كله . . . وفيما أنا أدير المفتاح فى الباب سمعت رنين قبلات فى إحدى الغرف ... ثم صوت ضحكات ... ضحكات كاترينا بعينها ، فلا أحد يضحك مثلها بقلب طروب ... وسمعت إثر ذلك صوتها وهى تتحدث فى همس ... وفتحتُ باب غرفتى ودفعته ورائى بغيظ وحنق ...

وبعد لحظات فتح الباب برفق ، ودخلت كاترينا وهى تتثاءب وعيناها شبه مغلقتين كأنها مستيقظة من نوم عميق ... وأفاقت فى التو من تأثير مخدر ! وجلست على الديوان وهى تفرك عينيها ووضعت ساقاً فوق أخرى ومالت بجسمها إلى الوراء وقالت وهى أشبه بالناعة أو الحالمة :

— لماذا تأخرت هكذا ؟ كنت فى الكازينو طبعاً ... لقد أبصرت بك لبزا مع بعض الغوانى ...

فصمت ولم أجب ... ونظرت إلى هذه الفتاة وهى تتكسر وتتثاءب ، وتتصنع التعب الشديد وتحاول الاستفاقة من النوم ، وقد كانت منذ لحظة فى أحضان رجل ، وحاولت أن أقرأ فى عينيها شيئاً ينم عن حقيقة أمرها فلم أستطع

وجلست وهى تسارقنى النظر . ثم نهضت ومشت إلى صوان الملابس وجاءت لى بجلبابى . فتناولته منها ، ودفعتها عنى فابتعدت قليلاً ولم تقل شيئاً ، وظلت هادئة ووجهها ساكن الطائر ونظراتها لا تتغير

وقلت بصوت خشن وقد تحول بصرى عنها

— والآن أريد أن أنام يا كاترينا

— ألا تريد شيئاً ... ؟

فرفعت وجهى ونظرت إليها نظرة يتطاير منها شرر الغضب ، فوقفت فى وسط الغرفة أكثر من دقيقة وهى لا تبدى حراكا ولا تحرك ساكناً ... ثم مشت متثاقلة إلى الباب ...

وأغلقتُ الباب وراءها بعنف وغيظ ولا أدرى لماذا كنت أحمق إلى هذا الحد

***

وذهبت مرة إلى مطعم من مطاعم السمك الفخمة فى شارع كارول لأتعشى ... بعد أن ترددت طويلاً فى ولوج بابه ... وجلست فى ركن بعيد عن الخلق وأنا شاعر بالنفور والقلق ... ودرت ببصرى الحائر فيمن حولى ... كما ينظر الرجل الغريب إلى قوم لا يعرفونه ... وشد ما كانت دهشتى عند مالمحت كاترينا جالسة إلى مائدة فى وسط القاعة مع كهل أنيق الملبس رائع المظهر . . . وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الفاخر لا نرى مثله إلا فى قصور الأمراء !... ولما وقع بصرها على ابتسمت وأحنت رأسها فى أرستقراطية أصيلة ! ... ولمحت فى عينيها وهى تنظر إلى ذلك البريق الخاطف الذى يبدو ثم يختفى فى لمح الطرف ... ولا تعرف منه شيئاً على الإطلاق ... ونظرت إلى هيئتها وزينتها وقارنتها بالنساء الجالسات فى المطعم فإذا بها تبزهن جميعاً ... فهى آنق مظهراً وأحلى شكلا وأنضر وجهاً ورجعت أذكرها وهى فى ثوبها الأبيض البسيط فى الفندق كفتاة ريفية ساذجة يبدو من مظهرها أنها لا تعرف من شئون الحياة شيئاً ... وأدركنى العجب

وغافلتها وهى تحادث صاحبها وانسللت إلى الخارج وعدت من بعض المراقص إلى الفندق فوجدتها جالسة فى غرفتى منكبة على المكتب تكتب رسالة ! ورفعت وجهها لما شعرت بى . . . وتوقفت عن الكتابة ونظرت إلى وهى باسمة ... ثم عادت تكتب وبعد دقيقتين طوت الرسالة وغلفتها وقالت : « إننى أكتب رسالة إلى صديقة عزيزة فى بلغراد ... هل رأيت ذلك العجوز الذى كان معى الليلة فى المطعم ؟ إنه عمى ! جاء أمس من بلغراد وحدثنى عن مرض كاتوشنكا العزيزة فجلست أكتب إليها هذه الرسالة فى الحال . إنها من أعز صديقاتى وقد طردتنا الحرب معاً . وكنا نعمل سوياً فى بودابست ، ثم طوحت بنا الأقدار ... وما زلت أنحط حتى وصلت بى الدرجة إلى العمل فى هذا الفندق ! هل تتصور أننى سأترك هــذا اليهودى يحاسبك على هواه ... ويقدم إليك الكشوف فى آخر الشهر كأنك مهراجا من الهند ... كل شرقى عند هذا الرجل الجشع مهراجا ... لا ... أنت طالب مسكين يا شوقى ؛ عند ما يجىء ديمترى ويدفع لك بهذه الأوراق ألقها فى هذه السلة ... سأحضر الحساب فلا تسل عن ذلك اليهودى يا شوقى ! »

وكانت تتكلم بسرعة كأنها تتلو من ورقة أمامها ثم كفت عن الكلام . ونظرت إليها فإذا بها ساهمة كأنها تفكر ... ولأول مرة فى حياتى أشاهد كاترينا تفكر ، فإن رأسها الصغير الجميل لا يتسع للتفكير ...

وطوقتها بذراعى وقلت لها :

— هل نذهب غداً إلى أيقوريا ؟

— أجل ... ولكن ليس أيقوريا ... أو كارمن سلفيا ... أو ماميا ... سنذهب بعيداً بعيداً عن كل هذه البلاد

وكانت تحلم ؛ وما أعذب الأحلام في رأس فتاة في مثل سنها وجمالها ... وضممتها إلى صدرى فسكتت واستراحت وأغمضت عينيها نصف إغماضة ، ثم انتفضت فجأة واعتدلت في جلستها وصاحت :

— ما هذا ... هل تعلمت هذا الجموح في بخارست ؟ أنت تعرف أنني عذراء ... أنت مروع !

وسافرت من كونستنزا إلى مدينة صغيرة على الدانوب ، وعدت منها بقطار بوخارست السريع إلى الميناء مباشرة ... ولم أشأ الذهاب إلى الفندق مخافة أن ألتقي بكاترين فتبقيني أياماً أخر

ولما اقترب موعد السفر صعدت إلى ظهر السفينة ووقفت على الجسر أرقب حركة المسافرين والمودعين وقد علت وجهي تلك الكآبة التي تعلو الراحل من بلاد يحبها ... بلاد قضى فيها أسعد أيامه وأمتع لياليه . وكانت الشمس قد غربت وبدت تلك الميناء الصغيرة تتلألأ في غبش الغسق ؛ وأخذت أستعرض في ذهني الصور الجميلة التي مرت على في تلك البلاد ... مناظر سينايا الخلابة ... وشواطئ الدانوب الساحرة ... وحسان بخارست ... وغانيات كارمن سلفيا ... وفاتنات ممايا ... وفندق بولونا ... وفندق الدانوب ... وكاترينا ... أجل كاترينا ... ! واتكأت على السور الحديدى وعيني إلى الأفق وكل شيء يمضي سريعاً ... ولمحت فتاة تهبط المنحدر المشرف على الميناء . وكانت تمضي على عجل وبصرها لا يتحول عن السفينة ... وفتحت عيني وتبينتها فكانت كاترينا . وقفت لحظة حائرة ... ثم نقلت بصرها في الركاب ... ولمحتني فجرت على الرصيف حتى وقفت أمامي وهي تلهث ... فنظرت إليها مشدوهاً وسألتها :

— ما الذي جاء بك ... ؟ وكيف عرفت أنني سأسافر اليوم ... ؟

— هذا سهل ! ... دعك من هذا الآن ... كيف حالك ... شد ما تغيرت ونسيت كاترينا المسكينة التي لا يذكرها أحد ...

ولم أستمع لباقي حديثها ... فقد درت ببصرى في الركاب لأحصي عدد الذين جاءت تودعهم كاترينا ... فلا بد أن يكون منهم من نزل في فندق الدانوب والتقى بها !

ورأت نظراتي ، وقرأت مادار بخلدي ... فامتقع لونها وغضت طرفاً ... ثم رفعت رأسها وقالت وقد اختلجت نبرات صوتها :

— شوق ... هل تحسب أنني جئت أودعك كلا ... أنت مروع ! إنني جئت أرقب هذه السفينة وهي مقلعة وسائرة برهة في الطريق الذي تسير فيه السفن إلى وطني ... سأركب هذه السفينة يوماً ما ... وأعود إلى وطني ، وأرى بافلوفنا ، وسونيا ، وأولجا مرة أخرى ... إنني أجيء إلى هنا كل أسبوع وأرقب السفن وهي مبحرة وأتخيل أن ذلك اليوم سيأتي ولا بد أن يأتي ... فلا تحسبن أنني جئت أودع الصعاليك أمثالك ! ... فاستغرقت في الضحك

— لا تقولي هذا يا كاترينا ... إنني مسافر اليوم وسأعود غداً لأراك ولا بد أن نلتقي ثانية

— حقاً ... ؟

— أجل ... لا بد وأن أعود في العام المقبل وكل عام بعده لأرى كاترينا ...

— والآن اصمت واقترب ... أرأيت ؟ إننا لا نستطيع أن نتصافح ... إنتظر لا بد من ذلك ...

واحمر وجهها ولمعت عيناها ، وظهرت في أبدع ما كونها الله ... وقد اختلجت شفتاها ، وتهدل شعرها ، ورف لونها ، وتورد خداها ... وعلت أنفاسها ، ومالت برأسها إلى الوراء ، وارتفعت بجسمها قليلاً ... وانحنيت عليها ... والتقت يدانا ... وتصافحت أنفاسنا ...

ودوى صفير الباخرة ... وتراجعت كاترينا ... ووقفت جامدة كالتمثال ... وعيناها مخضلتان بمثل الدمع ...

وشيعتها ببصرى وهي تصعد المنحدر الذي جاءت منه ... ولكنها لم تكن تمضي مسرعة ... بل كانت تسير على مهل كاسفة البال حزينة ، كأنها استفاقت من حلم ...

محمود البدوى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)